روايات الهلال

الشوك والياسمين

فكري داود

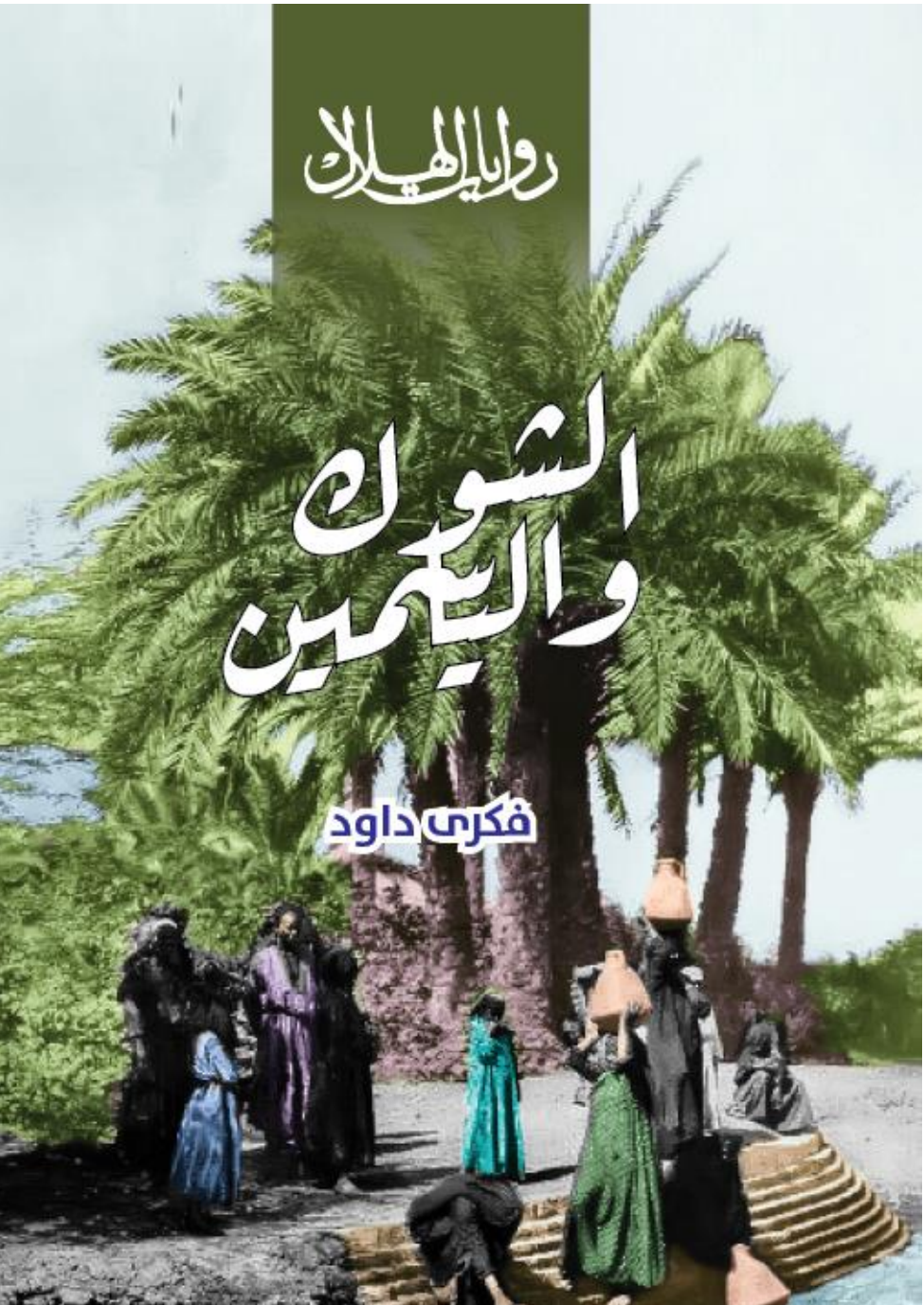

روايات الهلال

الشَّوْكُ وَالْيَاسَمِين

فكري داود

سلسلة شهرية تنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس اللإدارة
مجدي سبلة

رئيس التحرير
خالد ناجح

روايات الهلال

الكتاب: الشوك والياسمين
المؤلف: فكري داود
التصنيف: رواية
الناشر: روايات الهلال – مؤسسة دار الهلال
الإصدار: يوليو: 2018

رقم الإيداع:2018/14031

الترقيم الدولي:978-977-07-1872-8

مؤسسة
دار الهلال

روايات الهلال

الشَّوْك وَاليَاسَمِين

فكري داود

إجْمَال

عند التقاء طريق القبور بالأسفلت، صانعّين حرف (T)، تقبُع كُبرى ماكينات الري، يدق صوتُها بانتظام، كساعةٍ أسطوريةٍ عملاقة، وثمة جَلَبَة ارتجالية مُعتادة، لخَلْقٍ كثيرٍ ودواب وحافلات، تُثير خيمةً مُعَلَّقةً من غبار، تحيط برأس مأيكل، فيتسلل نُثَارُها إلى حَلْقِه، وربما إلى جوفه، مع كل شهقة أو زفرة، لكن قدميه لابد أن تواصلا المسير، فزيارةُ الجمعة حتمية، حتى لو فاتته صَلاتُها، وعدمُ وصالِ الراحلين، يدخله في مجال التقصير.

ستةُ أيامٍ متشابهة تمر، قبل أن يُفاجئَه اليومُ المبارك، كما يُفَاجِيءُ آدَمِيٌّ عنيدٌ، ذئبا يَتَوَسّد جسرَ القصب، فيتباطأ الذئب قليلا، قبل الاختفاء بين الأعواد، جاهلا أن الآدَمِيَّ العنيد، لن يتراجع عن المسير، قبل إكمال الطريق.

وللجمعة الثانية على التوالي، لايتمكن من إدراك الصلاة، قد تفوته جمعة واحدة، أما اثنتان متتاليتان، فَحَدَثٌ لم يقع له، منذ عشرين عاما أويزيد، قضى نصفها غريبا، في بلاد غير البلاد.

يجري الوقت آليا، كحصانٍ مُنْفَلِتِ السّرْج، تنقضى لياليه الأخيرة، في أشغالٍ تبدو للبعضِ تافهة، تبدأ عادة مقصودة، ثم تحتال إلى عشوائيةً: مُراجَعات كتابية، مشاركات بمواقع إلكترونية، وجلسات تواصل اجتماعي، تتخللها أنباءٌ متباينة، عن ثورة2010 التونسية، ودعوات جادة للتظاهر، في عيد الشرطة المصرية، الانشغال بأشعار صلاح جاهين، وأمل دنقل، ومحمود درويش، وأعمال ديستوفسكي الكاملة، و...

تتضاعف آليا فناجين القهوة، وأكواب الشاي، عِوَضاً عن السجائر، التي تتلاعب بإرادته، منذ إقلاعه عنها لدواعٍ صحية.

أمام التلفاز تَفِرُّ الساعات؛ التقارير حَرَّاقة، الآراء بلاحدود فاصلة، حوارات معادة، حول فشل الوزارات المتتالية، واحتجاجات محدودة لبعض الفئات، الأفلام الوثائقية مُغرية؛ ما أعجب عوالم البحار، والصحراء، والغابات، والاختراعات، وأشهر الحروب والثورات.

يسيطر التوهان على رأس مايكل، إلى قُبَيلِ الفجر أوبُعَيدِه يطول السهر، يلتهم النومُ المتأخر، نصف النهار القادم، بما يكفي لقضاء الصلاة بدونه، وللأسبوع الثاني يقع الأمر، شعور بالذنب يتملَّكة، مع دفعات ذاتية من تأنيب، لا تفارق ضميره بسهولة.

قُرب العصر حَلَّ عليه الصَّحْو، تَمَهّلَ في وضوئه، ناويا الاحتفاظ به لأطول وقت، لامَسَتْ قلبَه نسمةُ ارتياحٍ، عندما تذكر صلاته للفجر قبل النوم، أدى الظهر منفردا، بدلا عَن الجمعة الفائتة، متحسرا على صلاة الجَمَاعَةِ، التي تفضُل المنفردة، بخمسة أوبسبعة وَعِشْرِينَ ضِعْفًا.

أَبَتْ نفسُه استهلالَ يومِه، بطعام الغذاء الذي حلَّ وقتُه، اقتات شيئا من فطوره الفائت، خاتما بالشاي خفيف السكر.

من الشارع المقطوم خلف الدار، هاجمته جَلَبَةٌ صَاخِبة؛ بين الصغار حَمَى وَطِيسُ اللعب، تخلله بكاء وضحك وصياح، مع عِتاب الأمهات على تَضَارُبِ اللاعبين، وتساقُطِ ماء الغسيل الطازج، فوق رءوس المارة، أولأسباب أقل أهمية، وسرعان ما تستقيم ثرثرتُهن، عقب جَلْي أوانِي الغذاء، مُقَدِّمات له دون عَمْد، مصدرا رئيسا لأخبار الخلق؛ من الميلاد إلى الممات، أومن المهد إلى اللحد، كما يقولون.

حجرة نومه كسائر الحجرات؛ تزحمها المجلات والصحف، الكتب فُرَادَى وجماعات، فوق أوتحت أي أثاث، سجاداتُ الأرضِ نصفُ قديمة، وشوائبُ متطايرةٌ تسبح، وسط شعاع الشمس، المارق عبر النوافذ، ليحط فوق الكسوة الستان، للصالون الموروث.

أكْلِمَةُ أمّهِ الراحلةِ، مبسوطة تحت كَنَبَاتِ الصَّالةِ، لازالتْ صورتُها ماثلةً أمامه، وهي تُحَوّلُ بقايا القماش، إلى سيورٍ طويلة، تُعيد تضفيرها أفقيا ورأسيا، لتصنعَ منها الأكْلِمَةَ، المُطَرَّزةَ بحوافٍ زاهية، خَاطَتَها بماكينتِها المتوارثة.

أرفف المكتبة تئن بالكتب، محتويات أدراجِها صعبة الحَصْر؛ دبَّاسات، خرَّامات، مساطر، برَّايَّات وأمواس، أقلام مختلفة الخطوط والأنواع، محَّايات، لوحات مرسومة، وأخرى بيضاء لانزال، وأدوات تلوين متنوعة، تُذَكِّرُه بهوايته القديمة، وبأنه لم يُحَصِّل الدرجة الكاملة يوما، إلا في مادة الرسم، بالصف الثالث الإعدادي، و... ، ناهيك عن الملفات الورقية والمظاريف، التي يختص بعضُها عملَه الحكومي، فيما يخص أكثرُها مُسْوَدَّاتِ كُتُبِهِ، المُزْمَع إضافتها إلى مُنْجَزِه، الذي جعل مؤسسات عِدَّة، تدعوه محاضرا أوباحثا، منها مُسْوَدَّات مشروعه المتوقف، بكتبه الثلاثة، المتعلق أولُها؛ بتعدد زوجات النبي محمد- ﷺ-، حيث لكل زيجة حِكَمٌ تخصها، ليس من بينها، مجرد الرغبة في الزواج، فيما يَرُدُّ ثانيها عقلا ونقلا، كيدَ المُتَقَوِّلِين، على أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله عنها -، في حادث الإفك، أما الثالث فعن يوسف الصِّدِّيق، وادعاء امرأة العزيز عليه، ثم إيداعه السجن رغم وضوح براءته.

لكن خطيب المسجد، مأمورا من شيخه خميس، ومن فوق المنبر، أطلق على المشروع وصاحبه قذائف الهجوم، معتبرا احتكامه إلى العقل، خروجا عن النص؛ فمجرد الشروع في الدفاع، يُعد دليل اتهام، والمؤمنون ليسوا في حاجة، إلى كتب تدافع عنهم، خصوصا إذا جاء الدفاع، من غير العلماء أمثاله، محذرا من خوض العامة، في مثل هاتيك الأمور. وكالعادة حَدَثَ الانقسامُ، وتضاربت الآراء، وأصاب التوقف مشروع الكتب الثلاثة.

وكانت محاضرات مايكل، بمركز الشباب، قد أوصت بعدم الاكتفاء بالخُطب، في مواجهة التطرف والفساد، داعية إلى ابتكار طرق عملية، تدعم التنوير والمقاومة، كما كان يهدي البعض شيئا من الكتب، ككتابيّ:- ''الثورات الشعبية في مصر الإسلامية، للدكتور حسين نصار''، و''التفكير في زمن التكفير للدكتور نصر حامد أبو زيد''.

وهو ما ضاعف، حُنق خميس وتابعيه عليه، الذين لدَيهم أساسا، مشكلة مع اسمه؛ إذ يرونه اسما غير شرعي، يجب تغييره وإلا...!

قالوا:

مايكل، يُدْخِل العقلَ في الدين، مقَللا من قيمة الدعوة، كما يُهدي الشباب، كتبا غير شرعية، ألايكفي اسمه؟

وعبثا راحت محاولاته، للتفريق بين المسلمات والغيبيات، التي لابد من الإيمان بها، ولو عجز العقل عن إدراكها، وبين التَّدَبُّر والتَّفَكُّر، استجابة للدعوات الإلاهية، الواردة بالكتب السماوية.

أما موظفوا المحليات، فقد رأوا أنفسَهم، معنيين بإشارة المحاضرات، إلى المتواطئين مع المعتدين بالبناء، على بُقَع الأرض الخالية، المتناثرة عرضا وطولا، والتي آل أكثرها إلَى مايكل الأكبر - أول مستوطني الجزيرة المقابلة -، ببيع أصحابها

لها، دون سعي منه، مقابل مبالغ محدودة، وهو نفس الرجل، الذي سُمِّي مايكل ابن القرية على اسمه، لدواعٍ رآها والده حينها وجيهة.

رحل والد مايكل، و رحل مايكل الأكبر عن الجزيرة، مخلفا وراءه، أكثر من رواية، حول توطنه بها، ثم رحيلة عنها، موكلا من يتولى بُقع أرضه المتناثرة، بالبيع أوالإيجار، مرسلا امرأته، أومن ينوب عنه، مرة كل عام، لتحصيل ثمن ما تم بيعه، وأقساط اللمباع بالأجل.

ولعل الاعتداء بالبناء، على السكة الترابية شرق الترعة، يُعد الأكثر ضررا لدى للخلق، بعد تجريد حافتيها، من الأشجار العتيقة، والأعشاب التي تقتات عليها، أسراب الماعز السائب والحمير. حتى شجيرات الياسمين، ببراعمها وزهراتها الفوَّاحة، لم تنجُ من التجريد، رغم أغصانها المدججة بالشوك، كأنها إنسيّ ضت جوانحه، بين الخير والشر، في تركيبة أبدعها الخالق.

أدى البناء على تلك السكة، إلى حُرمَان القرية، من منفذها الوحيد البديل، حال تعطل الأسفلت غرب الترعة، وكفى ما حدث، آخر شتاء عاصف، سقطت فيه كافورة معمرة، قطعت الأسفلت، وعجزت عن تخطيها، العربات والدواب العائدة، من المشاوير والغيطان، فاضطر أصحابها للمبيت إلى جوارها، خشية تركها نهبا للصوص الليل، ناهيك عن معاناة المُتَرَجِّلِين، عند اجتياز فروعَها المتشابكة، حتى بعث المركز بونش عملاق، سحبها بعيدا عن الطريق.

أما مُلاك السيارات منزوعة اللوحات، وعربات الكارو، وأصحاب المقاهي، فقد انضموا دون اتفاق، إلى مناوئي مايكل، مع اختلاف الأسباب.

ساعد تبويبه لمكتبته غزيرة التنوع، على التقاط حاجته منها، وهو مغمض العينين؛ أعاد مراجعة ترشيحاته الأخيرة للقراءة: ''الخروج في النهار كتاب الموتى ''، الذي ترجمه شريف الصيفي،

عن المصرية القديمة، كتاب''العهد الجديد، طبعة دار الكتاب المقدس''،''إبداعات النار، لكاتي كوب''، الذي سبقت قراءته، لكنه ينتوي استشارة ابن خالته معلم الثانوي، في بعض وقائعه؛ التي تتناول تاريخ الكيمياء المثير، من السيمياء إلى العصر الذري، رغم نجاح مترجمه د. فتح الله الشيخ، في رسم لوحات بديعة، لحكاياته البادية لمايكل، من دروب السحر، رغم اختلاف محتواها، عن تخصصه الدقيق، كدارسٍ للغةِ الضاد، وقاريء لفنون آدابها، فالإنسان في رأيه كائن قاريء أولا، ثم كائن كاتب، ثم تنحدر به الصفات، حتى تصل إلى كَوْنه؛ مجرد كائن آكِل شارب نائم.

فوق الكومودينو المجاور للسرير، يرقد كاسيت أسود مستطيل، لايزال صالحا للعمل، من تحته دُرْج متحرك، يحوي شرائط تواشيح نصر الدين طوبار، وخُطَبا لخُطباء كُثر، منهم عبد الحميد كشك، بأسلوبه الجامع بين الجدية والسخرية، بغض النظر عن اختلافه، أواتفاقه معه، منها خطبتان تلخصان حياته، تعامل معهما مايكل، على أنه يستمع إلى رواية، من روايات السيرة الذاتية، التي لجأ إليها مؤخرا، عدد من الكتاب والشعراء، والقرآن مرتلا للسعوديين السديس والشريم، ونسخة متفردة، لمحمد صديق المنشاوي، وشرائط الشيخ إمام، مع أحمد فؤاد نجم، وأغنيات أم كلثوم، وفيروز، ومجموعة (المحمدات)؛ عبد الوهاب،

فوزي، عبد المطلب، قنديل، و...، وأخيرا منير، الذي يبدو على المسرح، وكأن عفريتا يتلبسه.

خلطة تبدو غريبة، يمكن لأي متأمل، أن يصنع منطقا خاصا، لقبولها أورفضها كليا أوجزئيا، إلاخميس الذي يتذبذب رأيه، بين القبول والرفض للحالة الواحدة، ربما في نفس الوقت، تحت شعار ''لكل مقام مقال''.

وهو – أي خميس - نصف متعلم، أشاع تابعوه أخيرا، حصوله على مؤهل عال، أتبعه بالدكتوراة.

ودون ذكر أسماء، قال مايكل ضاحكا:

المطر يسبقه الرعد، ولا دكتوراة بلا ماجستير.

فرماه الخطيب بالجهل، زاعما حصول شيخه على رسالته، من دولة أسيوية عريقة، والنظام بالخارج ليس كالداخل، ولاعزاء للحاقدين.

بينما أَرْجَعَ خميس رأسَه للوراء، رافعا عينيه لأعلى، فبان الكحل حول إنسانيهما السمراوين، فيما تحسستْ أناملُه، تجاعيد شعرة الخشن، البادية من فتحات طاقيته الشبكية، متقمصا دور الحكماء والصابرين، ناصحا صغار تابعيه، بترك مواجهة أمثال مايكل له، آمرا إياهم بنواصلة الانخراط، في النجارة والنقاشة والسباكة، وفتح محلات الهواتف النقالة، مستخدمين في تنقلاتهم، دراجات بخارية حديثة، ملتزمين بتسليمه أقساطا شهرية، قد تزيد لضرورة يراها، قائلا:

صدقة تنفعكم أنتم وذرياتكم، في حياتكم وبعد الممات.

فيكسو وجوههم الاستسلام، وتنحط أعينهم في الأرض خانعين.

فيما يُهيمن كبارُ التابعين، على زوايا القرى ومساجدها، مُنَصِّبين أنفسهم دعاةً، في ظل اعتقاد الدعاة الرسميين، بأنهم مجرد

موظفين، تاركين مايكل وأمثاله، في مواجهات لاتنتهي، مع أولئك وهؤلاء.

ولاأحد يعرف بالدقة، من أين تأتي خميس ومريديه، الفتاوى الكبرى، التي يلتزمون بها، لاسيما في الزواج والطلاق، حيث يتزوجون غالبا، من بعضهم البعض، مكونين حلقاتٍ للقُرْبَى، مع اجتذاب المطلقات والأرامل، والمُعدمات، من ذوات مِسْحَات الجمال، اللاتي لايُكلفن شيئا يُذكَر، ولايريدن إلاالستر، وذلك في هدوء ودون تعجُّل، فتبدو الوقائع طبيعية، لدى عابر السبيل عديم التأمل، فتُنتج الزيجاتُ ذرية مرتبطة، بأخوّة غير شقيقة، يصعب اختراقها إلانادرا.

ولا مانع لديهم، من جَلْبِ داعمين ميسورين، أو ذوي مكانات مرموقة، ممن تأسرهم فصاحة اللسان وحُسن البيان، لدى دُعاتهم المحافظين، على السَّمْتُ الرزين، والابتسامات المتظاهرة بالحياء، فيوقف الداعمون تفكيرهم، معتقدين أن نجاتهم في الطاعة العمياء، وإذا لم تنفعهم فلن تضرهم.

وثمة غموض ما، يكتنف حال الأمراء، إلامِن متناثر الأخبار، حول استئثارهم بنادرات الجمال، من المنضمات حديثا، اللائي يتوجهن إلى بيوتهم كثيرة العيال، بدعوى مساعدة زوجاتهم، وسرعان ما يصبحن هن والزوجات سواء، تنفيذا لفتوى إضافية، دون إجراءات رسمية، في حضور نفرٍ، ممن اجتازوا اختبارات خاصة، أقَسَموا خلالها على حفظ الأسرار، ولو قُطعت رءوسهم، لأنهم في النهاية موعودون بالجنة.

يصيب الناس الارتباك، وهم يرون تردد مثل هاتيك النسوة، قرادى أومصحبات صغارهن أحيانا، على بيوت تعج بصغار آخرين، يؤمون المدارس كغيرهم، كما يمتهن صبيتهم مهن الكبار،

تاركين صغار المترددات بالبيوات، قبل أن يواريهن غموض الاختفاء.

ببيت مايكل الخالي من الأطفال، تلزم الأشياء أماكنها طويلا، حتى تكسوها طبقة من غبار ناعم، انحنى آليا قبل الخروج، ليرتب أقرب ركن إليه، تطايرت ذرات الغبار، صاعدة إلى جيوبه الأنفية، أرسل عطسة عنيفة، تَبِعَتها سَعْلَتان خفيفتان، أدركه ألم غامض أسفل ظهره، نفض راحتي يديه، كأنه يصفق، أرسل سَعْلَة ثالثة، وهو يعيد لطولِه الاعتدال، بينما سارعت امرأته، بالشروع في ترتيب الركن.

لم يبق على المغرب، سوى ساعة زمن؛ همس لنفسه:

كم من لحظات خاطفة، غيرت مجرى التاريخ، وبضع ثوان أوحتى ثانية، كافية للفصل بين الحياة والموت.

ورغم استمرار ألم الظهر، أفرج صدره عن تنهيدة طويلة، وهو يهمس: ''أكرموا بيوتكم ببعض صلاتكم''.

ثم هَمَّ ليؤدي ركعات العصر.

يُداخِلِه عَزْمٌ أكيد، على زيارة أسلافه الراحلين، لعل شعوره بالتقصير يتقلص، إذ منعه النوم من إدراك الجمعة، ثم زيارتهم عقب صلاتها مباشرة، كغالبية أهل القرية، لكن زيارة اليوم تبقى مُلِحَّة، مهما تعددتْ بأيام سابقة.

وتاريخ ارتباطه بالقبور قديم، قبل أن يعي لها معنى، أويعرف لها طريقا، بدأ منذ كانا هو وامرأته الحالية، في الخامسة من العمر، فيما يكبرهما أخوها – السفير السابق حاليا -، بعامين لاغير، لكن هذا الارتباط القديم، كاد أن يقضي عليهما معا، وكما أخرجتْ حواءُ، آدمَ من الجنة، ونزلت به إلى الأرض كما يُقال، أخرجته البنت من الحارة، ثم من القرية، ساحبةً يدَه قاصدةً

القبور، بدعوى إدراك أمها، التي سبقتها، لتوزع حلوى الرحمة على الصغار، ولابد من نيل حظهما منها، هذا ما أفهمته كلماتُها القليلة، ورأسها بالطبع لم يبتكر هذه الفكرة، فقد اعتادت ملازمة أمها، كل خميس أوجمعة، في تلك الرحلة الأسبوعية، فلما أخبرها بأنه لايعرف المكان، أخبرته بعدما بدأت خطواتهما التحرك، بأن المكان بعد الكوبرى، الذي تعرف الطريق إليه.

لكنهما لم يعبرا الكوبرى، ولم يقصدا سكة القبور، التي لاتتطلب منهما، سوى قطع الأسفلت بالعرض، ليصبحا على ناصيتها، لكنهما استمرا فى المسير، فوق السكة الترابية، التى ظلت المنفذ الوحيد البديل للناس، كلما تعطل الأسفلت، قبل تدجيجها بأبنية المُتَعَدِّين، التي سارا بمحازاتهاً، حتى خَلَّفا البيوت وراءهما، ووصلاً إلى مفترق طرق، معروف باسم آل عيسى، بجراجه الوسيع، المليء بمقاعد ومهمات سرادقات العزاء والأفراح، مَارَّيْن بين الكلاب البلدي، المتواجدة دوما للحراسة، دون أن ينبس أى كلب، بنُباحٍ ولو قصير، ثم وَدَّعَا وابورَ الطحين القديم، الكائن بعد الجراج، ومِن ثَم وصلا إلى الكفر المجاور، الواقع أيضاً على شاطيء البحر، محل زواج ابنة عمه لاحقا، أخت أيمن الصغرى، وتوقفا قليلاً منبهرَين، قُبَالَة أحد الصيادين بقاربه الصغير، وهو يخلص شبكته من رزقها الحي، ثم تجاوزا كل الأبنية، لليصادفا نخلة بلح أصفر، تتناثر حولها بضعُ ثمرات اقتاتا عليها، قبل فشلهما في العثور على المزيد.

بالقرب من النخلة، توجد حجرة قديمة أمامها مصطبة، تم بناؤهما بالطين وطوب القمائن الأحمر، يحتل المصطبة عجوزان، يتهامسان كحمامتين واهنتين، إلى جوارهما يرقد سبيلٌ للماء، يشبه ضريحا صغيراً، في قلبه يسكن زيرٌ فخاريّ، فوق فوهته

دائرة خشبية كصينية الشاى، عليها كوز صفيح لامع، مربوط بحبل من التيل، بينما لم تزل شمس الأصيل باقية، تراود الأفق عن نفسه، كي يسمح لها بالرحيل.

بين الصغيرين قسمتْ السيدة العجوز، نصف رغيفٍ جاف، وملأت كوز الصفيح بالماء لتسقيهما، ثم أدارت وجهيهما، نحو الجهة التى قَدِموا منها، ظانَّةً أنهما من أبناء الكفر، فعادت الأقدام الصغيرة، لتدوس طريق العودة، بخطواتهما الضيقة، وما إن وصلا إلى وابور الطحين القديم، السابق لجراج آل عيسى، حتى باتت الشمس على وشك الإفول، فيما هجم عليهما الكسل، الذى أفضى إلى النوم، فى المنحدر المُتْرِب للسكة، فلما لمحهما حارس وابور الطحين، المعروف بحكاياته عن العفاريت، التي تسكن الوابور، فر عائدا إلى بيته، القريب من بيتيّ الصغيرين، ظانا أنهما ليسا سوى عفريتين متنكرين، لايشك في أنهما، سيكبران فجأة وينقضان عليه، ماضِغَين لحمه قبل عظامه.

بينما كانت أرجل الباحثِين، عن الولد المختفي، تدوس كل شوارع القرية، أمام أعين والِديّ البنت، اللذَين فاجأهما غيابُها أيضاً، فازدادت نار البحث اشتعالاً، مصحوبة بالصوات، وتبادل اتهامات الإهمال، حتى تفاجأ حارس الوابور بالعاصفة، فَجَرَّ البلدَة خلفه جَرًّا، إلى موضع العفريتين النائمين، اللذَين لازالت في ذاكرتيهما، كثيرٌ من التفاصيل الدقيقة مما حدث، ومنها ما ظل يرويه مايكل لامرأته، عن حَمْل أحد خَالَيه له، ورأسه مسنود على الكتف، فيما ظهره وساقاه النحيلتان، باديتان لجميع المهللين، ابتهاجا بالعثور عليه، وفى يد خاله الآخر، عصا رفيعة من حطب القطن، تعلو وتهبط فوق ساقيه، دون أن يلفت صراخه أي انتباه.

إنه الارتباط المبكر بالقبور، الذي كان من الممكن أن يكون الأخير، لكنه بدا وكأنه، أول الروابط بين الصغيرين، الذي تبعته بالتأكيد عدة روابط، مختلفه الظروف والتوقيتات، حتى صارا زوجين إلى اليوم.

قطع مايكل شارعا، بين الكوبري القديم وبين بيته، الكائن وسَط كتلة السكن القديمة، قبل تنامي البيوت من حولها، ملتهمة الحقول شمالا وجنوبا، التهام النار لأعواد قمحٍ يابسة، في ظهيرة يوم قائظ، أما شرق القرية؛ فمحدود بمجرىً النيل، المتراجع أمام الرَّدْم، والبناء لصق شاطئه، بينما تحد غربَها ترعةُ الساحل، بخليط مياهها مع مخلفات الصرف الأهلي للمجاري، التي اعتادت الزروع امتصاصه، حفاظا على استمرار دورة حياتها، بين سائر المخلوقات.

ينتوى منذ آخر خُطبة حضرها بالمسجد، قضاء واجباً (رحمياً)، نحو صُغرى أخوَاته وبناتها، وزوجها المحتفظ بلقب سفير، رغم حداثة تقاعده الاختياري، رغبة في التحرر من أعباء الوظيفة، و زهدا في دوام الاغتراب.

بضعة أسابيع مضت، على آخر لقاءاتهم، التي يتضاعف تكرارها، بحكم زواجه أيضا، من شقيقة السفير، صاحبة واقعة القبور وهما صغيران، في زيجة مستقلة، لاصلة لها بزواج البَدَل.

يُعَدُّ هذا الواجب (الرحميّ)، أحد ثمار الخُطبة، المُرَغِّبة في وصل البنات، المُوصَى بهن خيرا، قالت أمه وهي على فراش الرحيل: عليك بأخواتك.

امتدت يدها المرتجفة، متناولة فص البرتقال من يده، لم يستقبل جوفها، أي زاد منذ يومين، دفعت بالفص بين شفتيها الجافتين، ماصَّةً إياه لمرة واحدة، قبل إعادته إليه، قالت من جديد:

أخواتك يا مايكل.
صمتتْ قليلا، ثم أكملت: وخالاتك يا ولد.
أومأ برأسه مطيعا، ثم انكب على رأسها مُقَبِّلا، مُبَلِّلا بعينيه غطاء رأسها الأبيض، فدمعت عيون الحاضرين، وتناثرت همهمات من نحيب مكتوم.
لكن الخُطبة حَوَت أيضا، كَمَّاً مُريعا من الترهيب، أوشك معه الخطيب، ممتليء البدن، قصير القامة والثوب، على تجريد الحضور، من أية حَسَنَة، راميا إياهم بأكل الميراث، وقَطْع الأرحام...، فالنارُ فاغرةٌ فاهها، والشُّجاعُ الأقرعُ سيطال كلَّ الرءوس، ولافكاك لافكاك، كررها زاعقا متشنجا، وهو يشير نحو عجوزٍ ممدد الساقين، قبل أن يأمره بلملمتهما، والتأدب في حضرة مجالس العلم، فيما لم يبدر عنه أيُّ تنبيه، لأمهات الأطفال المصاحبين لهن، كي يخففوا من ضجيجهم، في مؤخرة المسجد، فوق سندرة النساء، اللائي بتن يحضرن بكثافة، وهن متشحات بالنقاب غالبا، حيث ذكره الضجيج، بإعادة إلحاحه على أزواجهن، زاعقا: ''لاتمنعوا نساءكم المساجد''.
مال ابن العزوني الموظف بالجمارك، على أذن مايكل هامسا، بأن الخطيب يتعمد ألايكمل: ''وبيوتهن خير لهن''.
ثم سحب رأسه للوراء، مغمغما بكلمات غير واضحة.
لامَسَ مايكل كتفه ليصمت، وهو ينظر نحو خميس ومازن – ابن أخي أيمن، وحفيد عم مايكل - القريبين، موقنا عدم جواز الهمس أثناء الخطبة، المكونة من جزئين، بينهما استراحة قصيرة.
تجاهل الخطيب ذِكْر أية سيرة، للجَنَّة أوالرحمة، أوأية بُشرى مما وردتْ، بعديد الآيات المعششة، بقلب مايكل وكيانه منذ

سماعها، من أفواه علماء عظام، كأعمام الخطيب نفسه، الذين درَسوا ودرَّسوا، علوم الدين بالأزهر والجامعات، مما استوجب مُقامهم بالمدن، يتحينون الفرصة تِلو الفرصة، ليصِلوا رحم قريتهم، بمعوزيها من الأهل والجيران، غير باخلين على مسجدها، بما تيسر من خُطب ودروس، قوامها الحكمة وحُسن الموعظة، معلقين قلوب الناس بهم، من الزَّوْرَة إلى الزَّوْرَة.

وبدا مُرْبِكًا بالفعل، ما يعلمه السامعون، عن صلة الخطيب بأخَوَاته، اللائي للإرث بينه وبينهن حكاية، تضاف إلى حكايات أخرى، منعهن في بعضها، من إقامة حفلات زواجهن بالمضيفة، كمعظم زيجات العائلة، وزيجات القرية بناتا وشبابا، عدا قلة قليلة، مثل الولد مازن، الذي اكتفى عند زواجه، بجلسة بالمسجد، بين خميس ورفاقه.

يدير مسئولوا المَضْيَفة، ليلة الاحتفال مقابل أجر، يتم تحديده وفق المطلوب؛ بداية من الاكتفاء بشريطٍ للإنشاد الديني، أوأغاني الأفراح، يصحبه تصفيق الحاضرين ورقصاتهم، مرورا باستقدام مدَّاحٍ للرسول، أومطرب شعبي، أوفرقةٍ تدق الدفوف، وصولا إلى إمكانيَّة الاستعانة، بمغنية نصف معروفة، أوبراقصة مغمورة.

ورغم عدم اعتراف مريدي خميس، بحرق المضيفة غير مرة، يرى العزوني أنه المحرض الأول، على فسخ نوافذ المضيفة ليلا، وإلقاء كرات القش المشتعلة داخلها، كما أنه لايستبعد ضلوع مازن ابن شقيق أيمن، في المشاركة الفعلية، رغم غياب الدلائل المؤكدة.

مع اقتراب مايكل من طريق القبور، استوقفه أيمن ابن عمه ورفيق عمره، بطاقيته بُنِّيَّة اللون ذات الزِّر، المصنوعة يدويا من صوف الغنم، وشَمْلته المُطَوِّقة لرقبته، بطرف يتدلى فوق الصدر، وآخر خلف الظهر، في صُحبة ثلاثة رجال:

أولهم زوج كُبْرَى أختيه، القادم مستفسرا لأول وآخر مرة، عن حق امرأته في بيت أبيها.

وثانيهم سعد حسني؛ كبير الورثة لفدانَين زراعيين، قلَبا حياته عَقِبَاً أسفل رأس، بعد دخولهما (كردون) المباني، وتناثرت حولهما القصص، قبل وصولهما إليه بالإرث؛ فقيل إنهما كانا ضمن أرض الإصلاح الزراعي، قبل أن تئول لجدهم، وهي القصة المحببة إلى قلوبهم، كما اشتهرت قصة، أكد نفر من المسنين صحتها؛ بأن أختا لهذا الجد، تمسكت بالرحيل، مع أسرة مايكل الأكبر، التي خدمت في بيتهم لسنوات، فما كان من صاحب البيت، إلاالتنازل لأخيها عن هذين الفدانين، لإخلاصها في الخدمة، لقاء اللقمة والهدمة والمبيت، شريطة سماح أخيها، باصطحابهم لها ضمن الراحلين معهم، حامِلِين ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، منهم من عاود الرجوع، ومنهم من غاب خَبَرُه اليقين مثلها، حيث لم يرد عنها لاحقا، سوى سِيرة مقتضبة، عن تعلقها بتاجرِ جوال، فرت معه إلى وجهة مجهولة، مخلفة لسعد حسني وذَويه، قصة لاتروقهم، وإن كانت غير مؤكدة.

أما آخر الصحبة الثلاثية، فهو العزوني المعروف؛ راسب الابتدائية، الذي بدأ صباه حلاقا بليدا، ثم تحول إلى فِلاحة الأرض، وتطهير القنوات بالأجر، ورغم قدرته على محاورة الأقران، أنزلتْه حذلقةُ الكلام، ودَسّ أنفه أحيانا فيما لايعنيه، منازل التَّفَكُّه والسخرية، كما أدخله تعصبه لأحد فرق الكرَةِ، دائرة المشاغبة مع الصّبْية، في حال هزيمة فريقه، وهو لسوء حظه كثير الهزائم، يملأ فمه مُقْسِما، بأنه يستحق جائزة نوفل – نوبل-، فوالِداه عاشا وماتا مُعْدَمَين، لابهيمة ولاغنيمة، ومن الطين لم يورِّثاه شبرا،

لكنه ربَّى أولاده بذراعه؛ فصار اثنان منهم مُعَلِّمَين، سافر أحدهما إلى ليبيا، فيما استشهد الآخر - وهذا فيه كلام -، ذات مظاهرة احتجاجية، علاوة على ابنه الثالث موظف الجمارك، بينما حصل أكبرهم على دبلوم الصنايع، قبل أن يصبح مهندسا كهربائيا، يتزوج ابنة السفير، ويطير بها إلى أوربا.

بمجرد انضمام مايكل، إلى الجمع الثلاثي، ألقى العزوني نحوه نظرة امتنان، بدت وكأنهااعترافا، بفضله في تلك الزيجة، ورغم حرصه على ذِكْر أولاده بمناسبة أوبدون، لم يستطع أحد، أن يبادره بالسؤال، عن ابنته المغدورة، ما لم يتطرق بنفسة إلى سيرتها، التي تأتي مُقترنة غالبا، بسيرة مَدْرَستها أولا، قبل سرد تفاصيلها المؤسية.

لكنه وعلى غير المتوقع، استبدل التطرق إلى سيرة عياله، بسؤال مايكل عن موعد إعادة البناء، لمبنى للمدرسة الإعدادية، وضيفتها الثانوية المُزال، ليجتمع شَمْل طلابهما، المتفرق بين المدارس، كما يتفرق دم القتيل بين القبائل.

اكتفى مايكل بالنظر نحو القبور، متجاهلا سؤال العزوني، الذي يجر وراءه حزمة من الشجون.

جلب تجمُّع أيمن ومن معه استفسار المارة:

- اللهم اجعله خيرا.

- عسى الله ما فيه شر.

- هل من حاجة نقضيها معكم؟ ...وهكذا.

إنه صميم الواجب، في العرف القروي، حتى لو علم السائلون، عدم حاجة المتجمعين إلى مساعدة.

ليست المرة الأولى، التي يحاول أيمن وصحبه، انتداب مايكل لحل عُقدة بيت عمه؛ الذي لايكل سكانه الحاليون، عن المُطَالَبة

بتقسيمه بينهم قِسمة الإرث، آملين في انحيازه لرغبتهم، استغلالا لثقة عمه وذريته فيه، فلولا والده المرحوم، ما كُتِب لهذا البيت الوجود.

كان لقاؤهم السابق قد تم، تحت شجرتي الكافور، فوق المقاعد الخارجية، لإحدى المقاهي الأربع القريبة، عندما أقْسَم أيمن عليه، أن يشرب شيئا ساخنا، بعد إقلاعه عن التدخين، وسرعان ما اكتملت الصُّحْبة، بقدوم سعد والعزوني، لتجتمع بالمكان ثلاثة شيشات، وتمتد أكواب المشاريب، ويرتفع الدخان أعلى الرءوس، فيما يرتفع صوت التلفزيون الكبير، في الفاصل بين شوطي إحدى المباريات، ويطل على المشاهدين، وجهٌ تونسيٌّ عجوز، يتحسس شعره الأشيب، قائلا:

هَرِمْنَا.

يقولها بلهجة مُحَبَّبَة، كررها خلفه المشاهدون، دون فهم تام لمعنى الهِرم، الذي هو داء بلا دواء، وبأن الرجل يتحسر، على عمره الفائت، وسط ظلم وقهر كئودين، وأن هذا العمر ضاع، ثانية بعد ثانية، ودقيقة بعد دقيقة، و...، وسنة بعد سنة، فيغنون له بعد ضياعها:

''سنة حلوة يا جميل''.

وكأنهم غير مدركين، بأن حقهم إحلال العزاء محل التهنئة، فما فات مات، والراحل لايعود، وهنيئا لك يا فاعل الخير.

الوقتُ مُهْرٌ طليق، والمغرب لاينتظر مُتَلَكِّئَاً، وصلاتُه جوهرةٌ مكنونة، لابد من اقتناصها، قبل دخول وقت العِشاء العارم، أفتى سعد حسني، بحُرْمة تأخير الزيارة، وإزعاج عفاريت القبور، الموشكة على الاستيقاظ، كي تهيم ساعية على رزقها، عكس البشر المقبلين على النوم، عقب العشاء ولو بحين.

لم يُلقِ لفتوى سعد أُذُنا، شَكَّاً في صِحتها، كما أن عشرين دقيقة أوثلاثين، لن تنغص على العفاريت حياتهم، في حال توأجدهم، أوتدفعهم إلى التراجع، عما اعتادوا فِعله طيلة حيواتهم.

مع استدارته مفارقا المتجمعين، لاحَقَهُ لسانُ ابن عمه، بخبر وفاة امرأة المعلم حافظ غريب، وبعزائها الكائن بمركز الشباب.

...-

لصْق الكوبري الذي عَبَره، قبل وقفة الطريق، تقع بُقعة من الترعة، تفاجأت القرية بالعمل على تغطيتها؛ خلق كثير، أوناش وجرارات من مركز المدينة، ومبالغ ليست بالقليلة، للحفر والرَّدْم وصب الخرسانات، فوق مواسير ضخمة، أتاحت مَرْتَعا شاسعا، لزبائن مَقَاهٍ أربع، كائنة شرق الترعة وغربها، وجراجا عشوائيا لعربات كارو وحمير، وسيارات أجرة منزوعة اللوحات.

أضافت ذلك سببا آخر، للحقد على مايكل؛ لتساؤله عن جدوى تلك التغطية، في بلد يحتاج إلى مدرسة ثانوية مستقلة، بدلا من إلحاق طلابها، على مبنى الإعدادية قبل إزالته، ثم على مبنى الابتدائية بعد الإزالة.

دفع موقفه بآخرين، إلى الدفع بتساؤلات مشابهة، على هيئة:

ألم يكن من الأولى، استكمال الصرف الصحي، المتوقف منذ سنوات؟

أو: ألا يرى المسئولون، أن الوحدة الصحية خاوية على عروشها، وفي حاجة إلى أجهزة ضرورية وأدوية؟

أسئلة قد تبدو تقليدية، لكن أحدا لايستطيع إنكار مشروعيتها.

وسَّعَ مايكل من دائرة التساؤل، موصلا إياه إلى معارفه، من الكتاب والصحافيين، العاملين بالصحف وأجهزة الإعلام.

سارع المحليون، بإحاطة المساحة المغطاة بسور، فبدت كملعب خماسي، نادرا ما يدخله الصِّبْية، وإلا طاردهم سائقوا العربات القديمة، وزبائن المقاهي، الذين ينفرون من الغبار، المتطاير أثناء اللعب.

وعلى رأي مايكل، جرى رأي العزوني، مع الاختلاف الشاسع، بين دافع كل منهما؛ فللمنطقة المغطاة في نفس الأخير، مكانة حجرةِ نومة؛ حيث بَكَّرَ الناس ذات صباح قديم، على أصوات مختلطة بالنداء:

غريق... غريق، جثة... جثة.

فإذ بالغريق غريقة، وإذ بالجثة لابنة العزوني، التي وُجِدَتْ طافية، بعد التعرف عليها بصعوبة، وسط العَفش لصق الكوبري، محل المنطقة المغطاة، أما ما أخذ القلوب وفجر الدهشة؛ هو ما قيل حول ثدييها، بأنهما كانتا منزوعتين - وهي رواية مرشحة للتغيير -، وكم فشل البحث، في العثور عليهما، وكم ثار الرجل وفار، دون أن يعطيه المسئولون أُذُنَا، يوم البدء في التغطية، مهاجما كل المشاركين فيها، ماذا دار في ذهنه آنئذ؟

هل راوده الظن أوالشيطان، كما يتندر الساخرون، بإمكانية العثور على الثديين، بعد فقدهما بسنوات طوال؟!

كم من مرة شوهد، متربعا كلاعب يوجا، فوق رصيف الكوبري، مُسَلِّطا عينيه على العَفش الطافي، ووجنتاه مبللتان بالدمع، في مشهد أَلِفه الناس، فباتوا يمرون به، وكأنه غير موجود.

فيما خالفهما أيمن الرأي، لامتلاكه عربة قديمة، يقودها أكبر أبنائه، تتخذ هي ومثيلاتها، من تلك المساحة، القريبة من داره، جراجا مجانيا مناسبا.

كانت عدة قرارات مباغتة، دأبت على مهاجمة الخلق، مَنَعَ أحدُها الميكروباصات الجديدة، من الحصول على لوحات الأجرة، فأصابت الحيرة أصحابها، واحتالت آحلامهم إلى كوابيس، حتى تَفَتَّقَتْ الأذهانُ عن مَخْرَجٍ تَحَايُلِيّ؛ بلجوئهم إلى شراء، لوحات الأجرة القديمة، كي يرخصوا بها، ويتمكنوا من نقل الركاب بين المحافظات.

وقتها لم يكن للعربات القديمة بلوحاتها، أي سِعْر يُذْكَر، لكن الظرف أنصف اللوحات، لتُباع وحدها بأضعاف الثمن، وبقيت العربات كعربة أيمن، تنقل الركاب بين القرى والكفور، وقد تصل إلى المدينة، بلا رقيب أوحسيب، لايُخفي أصحابُها غضبهم، من إقامة السور حول المنطقة، التي باتت جراجا لها، ومرة بعد مرة يصحو الناس، ليجدوا جزءا من السور، على وشك السقوط، أوفجوة ما احتلت أحد جوانبه.

يصرخون في وجه أيمن ساخطين:

كله من ابن عمك، ولولا نشره للموضوع، ما أقام المحليون السور، ولبقى المكان ساحة للعربات.

يهز أيمن كتفيه صامتا، تدور دورة الكلام باتهامهم، لتصل إلى أذني المتهم، فترتفع كفه أمام فمه، مُلَوّحَةً بإشارات السكوت.

يخرج مايكل، من موجة الاسترجاع هذه، يتنبه على صوت أيمن من جديد:

لاتنس العزاء يا ابن العم، العزاء بعد الصلاة.

- ...

في أذنيه لم يزل يرن، تساؤل العزوني، الذي بدا في غير أوانه، عن إعادة بناء المدرسة الإعدادية الثانوية، استرجع مع نفسه،

شيئا من الوقائع المستعصية، المنتهية بإزالة المبنى، ثم إلحاق طلاب المدرستين على الابتدائي.

عامان مضيا على الإلحاق، هما الأسوأ في تاريخ الثانوية، التي لم يشفع لها تخريج المئات، ممن صاروا مهندسين، وأطباء، وأساتذة جامعيين، ومحامين، وسفراء، و...، حتى حمدي العِتر، الذي يسميه معارضوه بالبلطجي، ويراه محبوه فتوة الفتوات، يُعَد أحد أبنائها، رغم فشله المتكرر بها، الذي تبعه فشل ذريع، في مشاركة المتاجرين ببقع الأرض، المتناثرة بين البنايات والزراعات، أيا كان أصحابها الأوائل، لما أصاب راغبي الشراء أخيرا، من تصميم، على تقديم حمدي، ما يثبت حقه بالتصرف فيها.

رغم وقائع البيع المستمرة، بمعرفة الموكلين من مايكل الأكبر، دون حساب أومراجعة، بمعاونة محام محترف، يأخذ أحكاما بصحة التعاقد، على عقود تفيد امتلاكهم للأرض، كي يبيعوها لحسابهم، مقابل نسبة للمحامي، حارمين العِتر من أية قطعة، يمكن استغلالها لحسابه، مكتفين بمنحه أحيانا، أي مبلغ كترضية، خصوصا بعد عودته النهائية من القاهرة، واستقراره بالقرية.

وكان العِتر قبل تقمُّص دوره الأخير بالقرية، قد فتح أذنيه، إلى كلمات مغنٍ مغمور، قدِم لإحياء أحد الأفراح، بأن صوته جميل، ويمكنه استثمار موهبته، بالغناء في ملاهي شارع الهرم، الذي سيرسله إلى بعض معارفه هناك.

وعليه غاب شهورا بالقاهرة، لم يتمكن خلالها من ممارسة الغناء، لكنه ارتبط عُرفيا براقصة مجهولة، جرته وراءها هنا

وهناك، حارسا ضمن الحراس، ليشاهد مالم يتصوره من انتهاكات، أيقظت بداخله شهامة عفريته الريفي، الذي صمم على اعتزالها الرقص، كي تتفرغ له، فأوعزت إلى آكلي العيش من ورائها، ليدقوا عظامه دقا، حتى سلمهم الورقة العرفية، ثم ألقوا به داخل أول قطارٍ، متوجه نحو دمياط.

لتدور بعدها عدةً مفارقات، نزل خلالها بإحدى المستشفيات، متناسيا كل ما عرفه، من أشخاص وأماكن قاهرية، قبل معاودة الاستقرار بالقرية، يزاول رفع الأثقال بمركز شبابها، مُنَصّبا نفسَه على نفرٍ أمثاله، وينخرط حتى أذنيه، في أشغال شاعت آنَذاك؛ فكم من فظائع وقعت، دون معرفة فاعليها؛ حرق دواوير وزرائب للبهائم، إعدام محاصيل حان حصادُها، حتى أشجار البرتقال والتين، وخطوط الورد البلدي والياسمين، الملتفة حول السراية القديمة تم اقتلاعها، وعن السرقات لامجال للحصر.

مع الحرائق تحملُ الريحُ، رائحة اللحم المحترق، من بهائم وكلاب وأغنام، تُزكَم الأنوفُ بالرائحة، وتمتليء القلوب بالشفقة، تتوافد جموع المُواسِين، ومن أموالهم القليلة يجمعون المبالغ، التي تجري مجرى العَوَض.

على مَدِّ البصر، تتعدد الرُقَع الزرعية، بتعدد ملاكها الصغار، كما تتعدد حالاتها؛ فإلى جانب المُجَهَّزة للزرع، توجد مساحات مُزْدَانة بقمح ناضج، يجاور سجادات البرسيم، صانعة صفا أخضر وآخر ذهبيا، في تناسق نادر، وعِنبات تُمدد أذرعها بلاعناقيد، فوق تعريشات خشبية وسلكية، وعلى مسافات متقاربة، يتناثر فوق الجسور، نخيل أخضر البلحات، وأشجار موز غير طارحة، وبصل ناضج معبأ بالأجولة، في انتظار نقله بالعربات، وتحويطات

وأفدنة محدودة للفاكهة، يخص أحدها شقيق السفير، ببرتقاله (أبودمه)، وعصافير مهدودة الحيل، لسعيها الدائم منذ شقشقة الشروق، حتى شحوب شمس آخر النهار، الرامية بظلالها على الزراعات، والقبور والدُّور وسائر الأبنية.

لم يدرك أحدٌ إلامتأخرا، صعوبة الاختلاط المفاجيء، لطلاب الثانوية الكبار بصغار الابتدائي، والأمر يختلف تماما، عن المدارس متعددة المراحل منذ البداية، ناهيك عن اقتران هذا الاختلاط، بتعطل المعامل والأنشطة، وضِيق الحجرات والمقاعد، وامتداد أيدي الشيخ خميس وتابعيه، لتنهل من معين الدارسين، كما أن للعتر أيضا، في الوليمة نصيب.

بالمدرسة الابتدائية المختلطة، عملت زوجة مايكل لمدة، ورغم عدم إنجابها إلابنة وحيدة، اختارها الله إلى جواره، حصلت على أجازة طويلة، تفرغت فيها لرَجُلِها، مُتَنَدِّرَةً في حوارهما معا، بوقائع جرت للمتعلمين الصغار من الجنسين؛ فكم كُسِرت أذرع، وتورمت وجوه، إثر لطمات أوركلات معلميهم، خصوصا ذلك الذي، يمتلك بدنا ورأسا هائلين، وقلبا ولفظا غليظين، لم تسلم منه حتى البنات، لاتغادر العزوني أبدا، ذِكرَى ابنته البِكْرِيّة معه، ومع قِلَّةِ أمثالِه، دأبوا على مغازلتها، وملامسة تقاسيم بدنها، التي اعتنى بها الخالق، فإذا لمحوا تمردا على ملامحها، امتدتْ عصيُّهم إليها بالضرب، مُدَّعِين إهمالها للواجب، أوتَحَدّثها مع زميلاتها، عن علاقة الرجال بالنساء، عُقْدَةٌ انتهتْ بتسربها من التعليم، ثم فَقْدها بعد سنوات.

وحتى عم مايكل والد أيمن، شبيه ''كونتاكنتي'' الأفريقي، البطل الأول في رواية ''جذور - لأليكس هيكلي -''، الخاصة بمأساة السود في أمريكا، الذي تَعرَّفَ مايكل، على ملامحه مبكرا،

منذ قراءة لرواية، ضمن أحد مشروعاته القديمة، حتى هذا العم، لم يفُتْه إيذَاءُ هذا المعلم، الذي ركل أحد أبنائه، فظل المركول حبيس البيت، حتى وافته المنية، وبدلا من المحاكم، حكم مجلس شبه أهلي، بعجل جاموس للعم، مع ضمان عمل دائم له، بأرض المعتدي وأبيه، أوْدَعَ الغجل دوارَ الجيران، بعد رفص امرأته أم الولد، دخوله إلى زريبتهم، وإلا تركتْ لرجلها الحِمْلَ بِحَامِلِهِ، جَمَلَا كان أوحمارا، وعادت إلى دار أهلها.

ومع ظاهر الهدوء، الكاسي لوجه العم، لم يُشْفَ غليلُ امرأته الحرون، أوأيمن ولدها، أوالعزوني وآله، عثور الشَّغيلة على جثة المعلم، وسط أرضه مهشمة الرأس، رغم مرور سنوات عديدة، على واقعتي فقد ابنة العزوني، ورَكْلِة ابن العم القاتلة، الذي لايستطيع أحدٌ، أن يتوقع موقفه، حال بقائه حيَّاً، من مسألة تقسيم البيت، ومن سكانه الحاليين، اللذين حمدوا الله، على فَقْدِه مبكرا، وإلا ربما شاركهم القِسمة.

في المسافة بين الكوبري والقبور، يمتلك سعد فدانا منفردا، لمح مايكل صهره السفير، يتمَشَّي فوق سِكَّته الرفيعة، مع شقيق سعد الأكبر، المنفعل تماما على الصِّبْية العابثين، بجسر قناة الري، المهتريء من تكرار تجريفهم له.

ولشقيق سعد هذا، مع الانفعال أحوال، تُوقِعُه فيما لايجب الوقوعُ فيه، منها ما يتندَّرُ الناسُ به، من ذِهابه إلى العُمرة – لا الحج -، بعد بيع فداني الأسرة الموروثين، بالمتر كأرض للبناء، طامعا كعادة أهل البلدة، في لقب (الحاج)، منطوقا قبل اسمه، وتجمعت النسوة منشدات أناشيد التحنين، وقام نقَّاش البيوتِ بطِلاء بيته، بالجير الأبيض المملّح، راسما الكعبة وبجوارها جَمَل

بارك، وعَلَم المملكة العربية السعودية، وعبارة ''حج مبرور وذنب مغفور''، إلا أن أحد جيران الغيط، دأبَ على مناداته، باسمه مجردا من اللقب المُرتَجَى، دون أن يرد الآخر عليه، لتأتي آخر مرة، يجري فيها الجارُ خلفه، لاهثا باسمه فقط، فعاجله الأخ زاعقا:
ماذا تريد من الحاج زفت؟ هو أنت عديم الدم؟
فثارت ثائرة الجار، وثار أبناؤه، لإهانة والدهم، وقامت عَرْكَة واسعة النطاق، زاد فيها تطاولُ الصغار، قبل أن يجتمع لها الكبار، ويتم أخيرا التصالح، بتقبيل الرءوس وذبح الذبائح، مع اتفاق شفاهي؛ ألاَّ يناديه الرجلُ لاحقا إلابالحاج.
وعلى الصِّبْية العابثين بالجسر، بدا انفعاله حادا، لتكرار بحثهم في بطنه، عن دودة وردية اللون، تشبه حَبْلا لَحْمِيّا أمْلَس، بطول الشبر أوالشبرين، يستخدمونها طعما لصيد الصنانير.
عقدت ذاكرة مايكل آليا، مقارنة بين خَرْجَاته صبيا للصيد، بصنارة الغاب وخيطها الحريري، المشبوك بشِصّها الدقيق، وبين آخر مرة خرج فيها كبيرا، في صحبة السفير، بصنانير جاهزة وارد الصين، عندما اصطادا حمارا سمكيا، بحجم طفل سمين، لم ينجحا في اقتناصه، إلابمساعدة شَغِّيلة الأرض الملاصقة للنهر، مستعيدان معا تعجبهما، من مغامرة البطل العجوز ''لأرنست هيمنجواي''، ونجاحه وحده بعد التقاعد، في صيد سمكة عملاقة، بقارب فقير، وأدوات أكثر فقرا، مدافعا عن صيده الثمين، ضد وحوش البحر المفترسة، وإن لم يعد في النهاية، إلابالهيكل العظمي الهائل، مقترنا بقاربه، وسط تهليل مستقبليه الفرحين بنجاحه، إنها الأحداث المضنية، لرواية ''العجوز والبحر'' الخالدة، على صِغَر حجمها.

لوَّحَتْ كفُّ مايكل، للسفير ورفيقه شقيق سعد، مسترجعا دور صهره، في إزالة المبنى القديم للإعدادية الثانوية، بعد بقائه طويلا، أسير قرارات الترميم لا الإزالة، حيث يقع العطاء على مقاول مُحَنَّك، ينفق القليل لإخفاء الشروخ، بجدران وأعمدة أنهكها التَّصَدُّع.

لم يكن الاكتفاء بالترميم توفيرا، أوحفاظا على المال العام، ولكنها الحِيَل المُسَكِّنة، فمبالغ الإزالة الكاملة، ومن ثم إعادة البناء، تذهب إلى مدارس أخرى، أصحابها أكثر شراسة وأشد قدرة، على اقتحام الأبواب الخلفية، لأهل الحل والربط، وميزانيات الترميم والبناء، بالتأكيد ليست سواء، وترميمة تفوت ولاأحد يموت، وهل ينفق أحدٌ شيئا من جيبه؟
هكذا يتساءل المسئول باستنكار.

ومن ثم، لم تتم الإزالة إلاأخيرا، بتقرير لجنة وزارية، قصدت المدرسة رأسا، يترأسها صديق قديم للسفير، وعندها بدأ المسئولون في التباري، كي يظهروا بمظهر المساندين، وفي نفوس الخلق أشتعل الأمل؛ فالإزالة يعقبها حتما بناء جديد.

لكن جراب الحاوي لايخلو؛ فبعد إدراج المبنى بقائمة البناء، تم رفعه منها سريعا، إذ أقام سعد حسني دعوة قضائية، كأحد جيران المدرسة، مطالبا باتساع الشارع، بين بيته الحديث، وبين المبنى المزمع إقامته، إلى ثمانية أمتار، بدلا من أربعة، وهو ما يعني خصم أربعة أمتار عرضا، في مائة وخمسين طولا، من المساحة الكلية، مما يجعل الباقي، لايكفي سوى مبنى محدودا، لايستوعب مدرسة واحدة لااثنتين، وعليه تم الرفع من القائمة، لحين الفصل في الدعوة، وياهناءة لمَن يعيش.

والحقيقة - وهذا ليس مُزاحا -، أن بيت سعد نفسه، تم بناؤه بالمخالفة، وصدر بصدده أكثر من قرار بالإزالة، لكن الله له في المحليين أحوال، فإذا سألهم سائل:
كيف يطلب المخالف، اتساع الشارع، بينه وبين جاره؟!
قالوا: هذه نَقرة وتلك نَقرة أخرى، ونحن لانخلط الأمور.
لتصبح سيرة سعد، لقمة تلوكها أفواه الخلق، حيث ظل زمنا كالكثيرين، محلا للشفقة والعَوَز، حتى صادَفَه قرارٌ مباغت، بدخول الفدانين المعروفين، في كردون المباني، ومثلما ارتفع سعر لوحات العربات القديمة، نتيجة قرار مباغت سابق، ارتفع سعر المتر بالفدانين، أضعافا مضاعفة، وجَرَت الأموال بين يديه، ليُصَرِّح ذات مرة، أمام رواد مقهاه المُفَضل، بقدرته على افتراش الأرض من تحتهم، بالورق أبي مائة، وقبل تماديه في التفاخر، عاجَلَه صديقُه العزوني سائلا إياه، عن سابق حذائه البلاستيكي، وجلبابه مجهول اللون، فانحشرت الإجابة في حلقه، وسارع بالانصراف، حاملا أمارات الضيق.

توالت شكاوَى المعلمين، ونفرٍ من الأهالي، إلى الكبير والغفير، من رأس الدولة، إلى رئيس الوزراء، ورئيس مجلس الشعب، ووزير التربية والتعليم، والمحافظ، ووكيل الوزارة، ومدير الإدارة، والتنظيم والإدارة، ومجلس المدينة، وحتى شرطة المجاري.
حَوَّلَ كلٌّ منهم الشكاوى، إلى مَن تحت إِمْرَتِه، لتصب في النهاية، عند محليات القرية، التي تحوي مكتبةُ مايكل، داخل أحد مظاريفها، مُسْوَدَّةً لِكِتابٍ حولها، بعنوان ''عجائب المفاسد''، وهو عنوان له رائحة التراث.

...

قبل المغرب بقليل، تعود أسراب النسوة من الغيطان، منتفخة أعْبَابُهُن بأكواز الأزرة، التي قضين اليوم، في فصلها عن أعوادها، أوكُرَات القطن المجموعة بأيديهن، وحِزَم متعددة من نباتات الأرض العشوائية، فيما لاتزال بعضُهن منهمكاتٍ، في شَطْف أرْجُلهن، ليُزِلن طين القنوات، التي كن يمشطنها بحثًا عن الأسماك، حريصات على دعوة مايكل، ومَن يصادفنه بالطريق، لينال شيئا مما يحملن.

عند اقترابه من المسجد، وأعلى درجاته الخَمْس، فاجأه سقوط أحد المُسنين، الذين يمُتُّون بِصلة صداقة، إلى والده الراحل، مثل المعلم حافظ غريب، زوج صاحبة عزاء اليوم.

ساهَمَ مع آخرين، في إعادة الرجل، إلى سيْرَةِ اعتداله الأُولى، لم يأت سقوطُه لمرضٍ أوغيبوبةٍ عابرة، بل لانزلاق عصاه الخيزران، فوق سيراميك الدَّرَج، المتبرع به أكبر تُجَّارِهِ بالقرية.

عقب الصلاة، عَاوَدَ الاطمئنان على صديق والده، قبل التوجه إلى العزاء، المتبقي على نهايته، رُبْعان من التلاوة، أحدهما على وشك الانطلاق، والآخر عقب صلاة العشاء.

بمجرد انتهائه من أداء الواجب، وفي طريقه إلى البيت، حاول مهاتفة سكرتيرته في العمل، لأمر يخص رواتب العاملين، ولما لم يتلقَّ رداً، أمسك عن تكرار المحاولة، دَهِشَاً من كيفية مجيء، فكرة هذه المهاتفة، في هذا التوقيت بالذات، وما الذي جعله يُقلع، عن تكرار المحاولة بهذه البساطة؟

بَدَتْ تلك التساؤلات، بلا إجابات واضحة، فكم من متجاهل لك، عندما تجاوره في عربة ما، ولو لسَفَرٍ قصير، وكثيرا ما يتناسى شخص ما، فرحا لك أوعزاء، رغم مسارعاتك السابقة، بمشاركته كل المناسبات، وقد يبدو غير مبرر أبدا، أن تصفع فتاةٌ شابا، يحتل

كرسي الميكروباص خلفها، دون وجود سبب ظاهر للركاب، والمثير أن يلزم هذا الشاب السكوت.

هاجم الخِواءُ بطنَه، مذكرا إياه بصيامه عن الزاد، منذ لقمة الإفطار الخفيفة، التي تناولها في موعد الغذاء، على مائدة العشاء، شاركته امرأتُه طعام الغذاء، صادف تلفزيونيا، جزءا من حوار لأحد ولدي مبارك - رئيس الدولة حينها - ، بدا فيه وكأنه الرئيس الفعلي، أدركتْه قبضةٌ في القلب، قفزَتْ إلى ذهنه المناوشات الدائرة، بمواقع التواصل الاجتماعي، والدعوات المصاحبة لها، برفض فكرة توريث الحكم، دهشا لهذا الكم المشارك من الشابَّات، اللائي لم يُجَرِّبْنها عمليا من قبل، كبنات أخته الصغرى، أسرع بتغيير القناة، تابع أواخر الشوط الأول، من مباراة لفريق العزوني المُحَبَّب، المتقدم بهدف على فريق حديث بالدوري، أراحَه قليلا إحرازُ الفريق الحديثِ لهدف التعادل، حيث أجاد في مباراتيه السابقتين، لكنه خرج مهزوما.

فوق ظهر التلفاز يرقد كتاب الدكتور رفعت السعيد:''التأسلم السياسي - جماعة الإخوان نموذجا – ''، الذي انتهى من قراءته، كآخر كتب مشروعه القرائي الفائت، كما ترقد أيضا مسرحيتا: ''مأساة جيفارا - لمعين بسيسو-''، و''مركب بلا صياد - لأليخاندرو كاسونا -''، المضافتان أخيرا، إلى مشروعه القرائي الجديد.

راودَتْه الرغبة، في إكمال المسرحية الثانية، التي أتقن ترجمتها د. محمود علي مكي، حيث توقَّفَ آخرَ مرة، عند حوار شائق بين (الجدة والعم ماركو)، في مستهل الفصل الثالث.

لديه يقين آني، بحتمية الالتفاف على حِيَلِ الشيطان، الذي لم ينجح معه، في إفشال زيارة اليوم للقبور، مع الاعتراف بنجاحه

مرتين سابقتين، بالتضامن مع سلطان النوم، في الوسوسة له، لتفوته صلاتان متتاليتان للجمعة.

والذي لايزال يحاول الوسوسة له، عقب فراغه من طعام العشاء، كي يكمل قراءة مسرحية ''مركب بلا صياد''، أويستسلم لرسول الكسل، الذي بدأ يتسلل إلى بدنه، وينسى أويتناسى، ما عقد عليه العزم، منذ آخر خطبة حضرها، بزيارة صغرى أخواته.

القُبُور

بمجرد مغادرة البيت، راح لسانه يلهج، مراجعا دعاء استقبال القبور المختوم بعبارة:''... أَسْأَلُ اللَّه لَنَا وَلَكُمُ العافِيَةَ''.
عليه أيضا أن يتذكر شيئا، من مراسم الزيارة، كأنه يراجع درسا قبل دخول الامتحان؛ سَيَلِجُ حتما خلف مقبرة العائلة، مُسَلِّماً على النائمين في سَكِينة، مع دعوات بالرحمة، وتوسُّلٍ صادق إلى الخالق، ليقبل الدعوات، بحق رُسُلِه وكُتُبِه، وفاتِحَةِ تنزيلِه.
أخذه التأمل قليلا، في عبارة الدعاء الخاتمة، متسائلا في نفسه: وهل للأموات عافية كالأحياء، أم هي عافية من نوع آخر؟.
ودهشا انشغل بمراجعة، ما جد على الخلق، من تقارُب مواقفهم، في حالتَيّ الحياة والموت، رَمْزَيّ الحضور والغياب، ربما ساهم تكرارُ الغياب مع مرور السنين، في تقلُّص تأثيره عليهم، وعلى تكوين أمزجتهم، فباتت طقوسُ الأفراح، قريبة من مجالس العزاء، التي اقتصرت مظاهر الحزن فيها، على أقارب المتوفى، لمدة تقصر أوتطول، عن الأيام الثلاثة الشرعية، دون النظر إلى حجم المواسِين، أوكيفية مواساتهم.
خلافا للأيام الخوالِي؛ فميتٌ واحدٌ بالقرية، كان يُحَتِّمُ منعَ أي عُرْسٍ، قبل مرور أربعين يوما، يذهب بعدها أقارب العروسين، وهم يوارون حياءَهم، مستسمحين أهل الفقيد، في إقامة عُرسهم بلا ضجيج.

بين مساكِن الراقدين وبين الطريق، نامت قديما ماسورتان

ضخمتان، تقطعان قناة الري، يفصل بينهما قُرابَة المترين، ينطرح فوق الماسورتين لوحٌ خشبيٌّ سميكٌ، ظلَّ عُمرا يعمل باباً، لأحد الدواوير القديمة، يَعْبُرُ فوقه مُشَيِّعُوا الميت بالنعش، وسرعان ما يتم رفعه، ليحمله نُخبة من الشباب، مع آخرين يحملون النعش، بعد تخلصه من مَيِّته، ليحتل المحمولان مكانيهما، تحت سلم المسجد الرئيس، في انتظار الراحل القادم، ليصبح العبور وقوفا أوحتى زحفا، فوق إحدى الماسورتين، مغامرة غير مأمونة.
ثم تمتْ لاحقا، تغطيةُ مساحات من القناة، صانعة معديات مُرِيحة، ساهمت في زيادة الزائرين، سِيَّما الصغار اللذين نالهم سابقا، نصيب من الوقائع الدامية، جرَّاء السقوط عند عبور الماسورة، وكذلك النساء القليلات، فأكثرهن لم يَكُنَّ متحمسات للذهاب، لعدم قدرتهن على العبور، فكُنَّ يكتفين بقراءة الفاتحة، وهن واقفات وسط نهر الطريق، الحار صيفا موحِل شتاءً، وكم من حكاية طريفة، ومأساوية في آن، لمن ادَّعَيْن الشجاعة منهن، مصممات على ركوب الماسورة، فعُوقِبْن بالسقوط وسط القناة، وتم إنقاذهن بصعوبة، منهن من كُسِرَتْ ذراعُها، أوانبطحت ساقُها، كما ظل بعضهن لمدة، يلعب دور المتلبسات بالجن، أشهرهن كبرى أخوات سعد حسني.
كما جاء أيمن ابن عم مايكل، في طليعة معتادي السقوط من فوقها، كما اعتاد السقوط بالمدرسة صغيرا، ومن فوق أشجار التوت والجميز، وكذا شجرة عين الجمل الوحيدة، التي تثمر عند ناصية الغيط، بحبَّاتها الصلبة ذات القشرة الخضراء، التي توشم الملابس بالبُقَع.

كان أيمن يبدو آنئذ، كالنساء الملبوسات بجد، لكثرة ما دأب على

افتعاله، بعد كل سقطة، من تشنجات هستيرية، يتبعها استدعاء شيخ الكُتَّاب، لتجرى كفه فوق رأس الملبوس، ولسانه يلهج بالرقيا، ويلتهم أحد فرخيّ الشَّمُرْد، اللذَين تنحرهما امرأة العم، إذا ما تَلَبَّسَ ابنها الدور، الذي يبلغ ذروته، كلما عاد بقميصه مبقعا، بلون الغلافة الخضراء، لجسم حبات عين الجمل الصلب، حيث يلف الحبة بطرف قميصه، قبل كسرها بأسنانه، فيوشَمُ القميصُ بِبُقَع متفرقة، لاتبرحه مهما تكرر غسلها، كما أنه الوحيد تقريبا، الذي ظل الانكفاءُ يصيبه قرب القبور، كلما نزل مع الصغار، لدهس شجيرات الطماطم، قبل قطف ثمارها الحمراء، فإذا وقعت أعينهم، على صاحب الأرض المُسْتَشِيط غضبا، دَبَّتْ الهِمَّةُ في أوصالِهم، لائِذِينَ بالفرار، فيما يجهض الخوفُ قوتَه، فيتكرر انكفاؤه فوق التراب، وتدركه عصا الرجل، صابَّةً غضبَها فوق ظهره، وأردافه المرتعدة.

تُرى أين تقع ذكريات كتلك، من رأس أيمن الآن، الغارق حتى أذنيه؛ في كيفية تزويج بنتين من بناته، وبناء قبور جديدة، أوهدم القديمة ثم إعادة بنائها، علاوة على إنشغاله القَسْري، في مسألة تقسيم البيت، بما يرضي الجميع؟

بعدما أنهى مايكل وقفة الطريق، بالموافقة على حضور جلسة حاسمة، في شأن البيت، وسَّعَ من خطواته، موليا ظهره للكوبري، مؤكدا تجاهل فتوى سعد، بعدم مناسبة وقت الزيارة، لعالم الجن والعفاريت، متجاهلا ما يدور بذاكرته، من حكايات تخيلية، عن احتلالها لشوارع وأسطح القبور، من دَخْلَةِ المغرب وحتى نَطْقَةِ الفجر، لكنه في الحقيقة لايتوقع لقاءهم، أوحتى رؤيتهم من بعيد، رغم ما يُرْوَى؛ بأن فلانا رأى كلبا أسود، أوقطة سوداء، تتمشى بين القبور، وأن علاَّناً شاهد كلبا أبيض، أوقطة بيضاء، وهناك من

أدركتْ بدنَه السخونة، عند مروره بعد الغروب، والموروث القديم حاضر بتفسيراته، فالحيوان الأسود، ليس سوى عفريتٍ شرير، على عكس الأبيض الطيب، أما سخونة البدن، فدليل على وجود جِنّيّ قريب.
والناس غالبا مؤهلون، للتصديق أوالتظاهر به، لأغراض تخصهم، حتى المتعلمين منهم، ولا أدل على ذلك، من معارضة بعض معلمي الثانوية، تحويل الدراسة بها، إلى فترة مسائية، وبقاء مُضَيِّفتها الابتدائية، لتنفرد بالفترة الصباحية، فتصبح كل حجرات المبنى ومَعَامِلُه، متاحة لكلا المدرستين، مع إلغاء أجازة السبت، والاكتفاء بيوم الجمعة مُكرما بأجازته، كما هو بسائر بلاد العرب، متاحا لصلاة الجمعة، وزيارة الراحلين، ووصل الأرحام.
إلا أن رَفْضَ المعلمين أبطل الفكرة، بحجة ساخرة تماما، تعاملوا معها وكأنها حقيقة، وهي احتلال العفاريت للمبنى، على هيئة قطط سوداء، بعد انصراف التلاميذ، وحتى طلعة الشمس الجديدة، رافضين التسليم - أومتقمصين الرفض -، بأن القطط حقيقية، وقد اعتادت على ذلك، لتقتات على بقايا التغذية، التي يتسلمها التلاميذ، ولايقبلون على تناولها.

حاول ابن خالة مايكل - المعلم بالمدرسة – تبريء ساحته، مؤكدا أنه
فعل ما عليه نحوهم، مذكرا إياهم، بتعرض كل المدارس المماثلة لنفس الفعل، كما أن القطط السوداء محدودة، إذا قورنت بالعدد الكلي.
فسخروا منه جازمين، بأن القطط السوداء أكثر، وبأنه يتجاهل دلالة ذلك.

قال مايكل ضاحكا:
ربما ركب بعضهم الموجة، تمسكا بأجازة اليومين.
ثم أمال رأسه يمينا ويسارا، لاعنا القرارات الفجائية، التي تضيف أوتحذف دون مناسبة، قال:
عقود طويلة مضت، ونحن مكتفين بأجازة الجمعة، حتى أضافت بعض الدول إليه الخميس، فأضفنا نحن السبت بلا سبب منطقي، فانحصرت الدراسة في خمسة أيام، بدلا من ستة، علاوة على أجازات أخرى لاتحصى في كثير من المناسبات، وفي الأعياد، كالفطر والأضحى والفصح ورأس السنة والنصر، و...، وها هو عيد الشرطة، القادم بعد أيام قلائل، والمزمع التظاهر فيه....
سرح ذهن مايكل قليلا، فقفزت أمام عينيه، ذكرى العم خميس، عامل المزرعة بالغُربة، أحد أبطال روايته السابقة، عن السفر والاغتراب، حيث كان يقضي معه، يوميّ الأجازة بالمزرعة، التي يقوم على رعايتها، بالمنطقة البرية السحيقة، بإحدى بلدان الخليج الشاسعة.

تطرَّق حواره مع ابن خالته، إلى مناح تحتاج إلى ثورة، كالمزمع التنسيق لها، بين شباب (الفيس بوك)، ومنهم بنات أخته، مستمدين من ثورة تونس الدافعية، متعجبا من جرأتهم، في طرح أفكارهم على الملأ، بل والتأهب العلني لتحقيقها، فنفس الظروف تقريبا، جعلته وأمثاله من قبل، يسارعون بالرحيل (والمرمطة)، في بلاد أقل مكانة وإمكانية، مكتفين بالضجر همسا، دون أي تصريح علني.
بالأمس القريب، شاهد فيلما وثائقيا، عن ثورة سابقة للشعب الروماني، ولشد ما أدهشته سرعة محاكمة الثوار، لرئيسهم

المُطاح به ولامرأته، أمام محكمة عسكرية، وتنفيذ الحكم فيهما، بالإعدام رميا بالرصاص، على الهواء مباشرة، ما كل هذه الآلية، وكل هذا الثبات، في تنفيذ الأحكام؟
ورغم اختلاف المواقف، يبدو شباب (الإنترنت)، وكأنهم استوردوا حبوبا للثبات، وعلى التغيير قد عقدوا العزم، مع أنهم موقنون، بإمكانية عودتهم جثثا، أوأصحاب عاهات مستديمة.
أين هذا ممن ظلت رءوسهم مطأطئة لسنوات طوال، لاتنفتح أفواههم بكلمة احتجاج حقيقية، في انتظار أقرب فرصة فرار حقيرة، إلى أية وجهة أخرى، بحجة السعي على الأرزاق؟!.
وهاهو رئيس تونس المخلوع، يفر كفأر مُطارَد، من ثورة سلمية، طالبا حق اللجوء، تصحبه امرأته أيضا، منفلتَين من المحاكمة المُفْتَرَضة، حاملين ما سرقوه، تاركين خلفهما، رُكَامَاً عجزوا عن حَمْله، من الذهب والأموال، بعد تبديد ثروات البلاد.
هكذا قال مايكل، بعد انتهاء الفيلم الوثائقي، وقال أيضا:
ترى مَن أحق بالتخليد، حتى في أحلك الظروف، هذين الفأرين الفارَّين، أم شهداء تونس، اللذين سلموا أرواحهم للخالق، ليسكنوا قبورهم باسِمين، تفوح حولهم روائح الياسمين اليانع، رغم شوك أغصانه؟
عند اقترابه من القبور، لملم خيوط ذاكرته، ساحبا نظرهُ عن الزروع الممتدة، تحت شمس ثلث النهار الأخير، بمجرد عبور إحدى المعديات، الحالَّة محلَّ الماسورتين، بدت بناية سعد حسني مرتفعة القامة، بعد بيع فداني الأرض للبناء، إلى جوارها تسكن، بناية آل مايكل الواطئة، أما بناية العزوني الحاضنة لابنته الفقيدة، ومن لحق بها آنئذ، فقد بقيت في انتظار انتهاء أجَلِه، وآجال الأحياء من قدامى عائلته.

حول القبور القديمة، تلتف بُقع أخرى تم تبويرها، دُجِّجَتْ بقبور حديثة، منها ثلاثة لأولاد العزوني الباقين، بعد موت - أواستشهاد - رابعهم، أقاموها دون تصاريح بناء، مستغلين تواطوء المحليين، مدفوع الثمن، وهي أبنية أسمنتية، ترتفع أسقفها الخرسانية لمترين، مُغَلَّفَة الجدران بالرخام والسيراميك، تتخللها حجارة ملونة حديثة، وهي تتسع من الداخل، بحيث يمكن للدفَّان مَدّ طوله، بعد عبور فتحتها، التي تُمَثِّل شبه دائرة.

وتبقى بالأذهان ذكرى، بناء العزوني لمقبرته الأولى، وارتباطها بواقعة مضحكة ومحزنة معا، حيث حسب حسابَه، لظهور ابنته المفقودة وقتها، فأَسَرَّ لأيمن بحاجته، إلى قرض مالي، لبناء مأوى للجثة حال ظهورها، مشترطا توقيع شيك بالمبلغ، يبقى لدى مايكل كأمانة، تُرد عند السداد، وهذا ما حدث بالفعل، رغم استنكار أيمن في البداية، أن يأخذ شيكا على صديقه، إلا أن امرأة مايكل، فتكت بالشيك تماما، بعد غسله داخل الملابس، وراح هباء أي انفعال منه، على المرأة أوأي تعنيف لها.

حملت المقبرة اسم آل العزوني، التي امتلأت سيرة موتاهم قبل بنائها، بالغريب من الأحداث، بداية من الدفن بقبور الصدقة، وسقوط أخيه الوحيد من النعش، أثناء تشييع جنازته، والزعم بأن هذا السقوط، ليس إلا إحدى كراماته، التي شاعت حوله في حياته.

وعقب وفاته مباشرة، ليلتها دخل العزوني عليه، وهو مسجى بإحدى الحجرات، ثم خرج على المتجمعين أمام الدار، بمجرد علمهم بوفاته، قائلا:

خلاص يا جماعة، أخي ابتسم لي وهو يقرئكم السلام، قوموا روَّحوا الآن، وأنتم مطمئنون على دخوله الجنة.

ثم راح يردد:

موعدنا الجنازة، وموعدنا الجنازة.
حيث ربط البعض بين هذا الترديد، وبين سقوطه من النعش أثناء تشييعه.
ومرورا بأحد عمومته، الذي فاجأ الناس بالدخول عليهم، مستترا بكفنه الأبيض، بعد دفنه ببضع ساعات، ففر أمامه من فر، وأُغمِي على من أُغمِي، لكن الجميع في النهاية، سلموا بأن الرجل دُفن حيَّاً، ولما أفاق تحسس طريقة، ليفتح السِّدَّة الطرية لاتزال، ويهرول مذعورا نحو البيوت.
فيما لم يستطع عمُّه الآخر، أن يقلد أخاه، في الخروج بعد الدفن، فوجده الدَّفَّان عند دفن الميت التالي، متقوقعا في كفنه، لصق السِّدَّة من الداخل، في إشارة حاسمة، إلى عجزه عن فتحها، وإلى أن موته الحقيقي، حدث بعد الدفن.
وتأتي حالة ابنته، وماصَاحَبَها من الاقتراض، وتوقيع الشيك – المغسول - لتكتمل، فعندما حان وقت رَدّ المبلغ لصاحبه أيمن، واسترداد الشيك من مايكل المؤتَمَن عليه، تذرع مايكل مرارا بالنسيان واختلاق الأعذار، مما أوقع العزوني في الريبة، وبدا أن خلافا ما، على وشك النشوب بين ثلاثتهم.

لم يجد مايكل سوى صهره السفير، ليُسِرَّ له بحقيقة غسل الشيك، فبان عليه الانزعاج، لكنه انتدب - على غير المتوقَّع -، أحد العاملين السابقين معه، البارعين في تقليد الخطوط، ليتفقد توقيعا للعزوني، كشاهد على أحد عقود الزواج، ثم تقليده عدة مرات، حتى توصل إلى نسخة شبه مطابقة.
أفرغ مايكل هواء صدره بارتياح، آملا في اجتياز الورطة، لكن

العزوني أنكر توقيعة على الشيك، ليس شكا في صحته، لكن ردا على مماطلة مايكل في رده، ودهشا من هذه المماطلة.
جرت محاولات عدة، لتقريب وجهات النظر، لكن أيمن - رغم جهله بواقعة غسل الشيك، ثم تقليده -، قام برفع دعوة قضائية، لإثبات كذب العزوني، فتحول الشيك إلى خبير خطوط، لتأتي المفاجأة، حاملة الإقرار بصحة التوقيع المُقَلَّد.
أستولى الاندهاش، على مايكل وصهره، لكن ذلك لم يمنعهما، من إعادة المياه إلى مجاريها بين العزوني وأيمن، اللذَين راحا يستعيدان معا، حيثيات تشييد المقبرة، وإصرار أيمن على أن تكون، بارتفاع قامة رجل طويل، من الطوب الأحمر والأسمنت، لا من الطوب اللبِن والطين، وتمحيرها بخلطة الجير والألوان.
كل هذا قبل انتشال جثة البنت، التي رفض الطبيب، منحها تصريحا بالدفن، زاعما وجود شبهة جنائية، مُصِرا على إبلاغ الشرطة، ليتم تشريح الجثة، بعد عدة إجراءات معروفة، ويتم اكتشاف أن سبب الوفاة، هو (إكسفكسيا) الخنق، وليس الغرق، مما أكد زعم الطبيب، إذا تم القتل أولا، قبل إلقاء الجثة في الترعة.
وجرت مراسم الدفن ليلا، في حضور بَشَرِي متوسط، وعدد من الكلوبات الأهلية، ويعود العزوني وأهله، إلى بيوتهم، مُحَمَّلِين بأسباب الهموم، يتلاعب الوسواس بعقولهم، محاولين التأكد، ممن تحوم حولهم الشبهات، آملين في الثأر أوالمحاكمة.
استغرقت بنايات القبور، تأمُّل مايكل؛ تُحاط جبانات آل السفير، ككل العائلات العريقة، بسور له باب حديدي، تتخذ الأبنية بداخله، أشكال البيوت الصغيرة، تضم عدة أقبية، مفروشة بالرمال الصفراء، تضاف إليها الحناء والشيح، قبل استقبال أمواتها الجدد،

تطل الأقبية على الفراغات أمامها، بفتحات دخول نصف دائرية، يعبرها الدفانون داخلين، لسحب الجثث من حامليها.

بعض الأبنية انغلقت إحدى عيونها، في إشارة إلى أن ميتاً واحداً دُفن بها، أوانغلقت لها عينان، لأن ميتين متقاربين دفنا بهما، وتظل العيون المفتوحة، في انتظار سكانها القادمين، ليمكثوا فيها مُخَلَّدِين.

ويبقى حُسْن الختام، أملا يراود مايكل، زائر آخر النهار، يملأ عليه كيانه، داعيا لكل سكان الأبدية، خصوصا جدوده ووالديه، وابنته الراحلة دون غدر، خلافا لبكرية العزوني، لكن قواه تعجز، عن المجازفة بالحديث أوالكتابة، عن حيثيات فقدها، وإلاَّخارت قواه وفاضت عيناه.

بمجرد دخول الكوبري القديم، جاعلا كتلة البيوت خلفه، تكون المساحة المُغطاة من الترعة – شبيهة الملعب الخماسي - عن يمينه، وعند تمام عبوره للكوبري، تصبح قدماه فوق الأسفلت، الموازي لغرب الترعة، الرابط بين البلدة وسائر البلدان.

فإذا التزم الأسفلت يمينا، مر بمقهيين من الأربعة، مواجهين للملعب المزمع، بعدهما بقليل يوجد مركز الشباب، يلتصق مدخله بالأسفلت، ومن ورائه مباشرة، تبرز المدرسة الابتدائية مستضيفة الثانوية، فيما تتناثر خلف المدرسة، أبنية عشوائية، تُعد مقدمة لعزبة محدودة، عند الحافة الخلفية للعزبة، بجوار الغيطان، تتلاصق بيوت أخرى، شبيهة بأكواخ محلة العبيد، في رواية ''جذور''، تتلاصق وسطها مساكن آل العزوني، قبل انفراد أولاده لاحقا، ببيوت جديدة في أماكن أخرى.

أما إذا التزم مايكل الأسفلت يساراً، بعد عبور الكوبري القديم،

تصبح كتلة القرية الأم، قُبالته شرق الترعة، ليصادف بعد خمسمائة متر، كوبريا ثانيا لايزال يتصف بالجديد، رغم مرور رُبع قرن على إنشائه.
فإذا أكمل المسير بعده، حلَّ بالعزبة الكُبرى، محل سكن ابنة عمه الأولى، تجاور دارها دارا، لأحد قُراء العزاءات الفقيرة، تُعد هذه العزبة أولى التجمعات السكنية، لمحافظة الدقهلية المجاورة، المشقوقة بمجرى النيل، مثلما تُعد قريته، أولى قرى محافظة دمياط، أوآخرها بالنسبة للقادمين من مدينة دمياط، عاصمتها التليدة.
لكن مايكل حقيقةً، لن يتوجه يميناً أويساراً، بعد عبور الكوبري القديم، بل سيقطع عُرض الأسفلت، في المواجهة تماما، ليصبح لصق موقع اجتماعه المعروف بأيمن ورفاقه، على رأس طريق القبور، مقصده الحتميّ كل جمعة، لمؤانسة مَن أوْرَثوه ذكريات لاتنمَحِي، بحلوها ومرها؛ حلوها المتعلق بأبيه وجدتيه، ومرها المتعلق بجده لأمه، جاد الألفاظ صلب الكفين، فيما يخرج جده لأبيه من الحِسْبَةِ تماما، لأنه عَجَّلَ بالرحيل وحفيده مايكل، لم يزل فكرة في رَحِم الغيب.

الطريق باتت مغطاة، بمربعات خرسانية متلاحمة، تم إنجازها يدويا، بدلاً من الأسفلت بمعداته الثقيلة، التي لاتتحملها السكك الضيقة، الواقعة بين مجريين مائيين.
خَفَّفَ الغطاءُ الخرساني، من حِدّة الغبار الصيفي، ووعورة زَّلَق المطر وفضلات الدواب، الذاهبة أوالعائدة من الحقول المترامية، دون أن يمنع القطط والكلاب، من نبش أكوام القمامة، على الجانبين قرب البيوت، مع أبو قردان المتناثر أكثره، وسط الأفدنة

المحروثة، ليكمل وجبة العشاء، قبل مكوثه الليلي، فوق الأشجار وبين النباتات، كما ثُبِّتَتْ على الجانبين أخيرا، بين أشجار النخيل والكافور، أعمدة بكشافات كهربائية، خَفَّفَتْ من إرث الرهبة، كما أزالت اللمبات المُعَلَّقة، بأسلاك تعلو القبور، شيئاً من الوَحْشة، وإن بقيت الوحشة والرهبة، مع حلول السكون واجترار الشجن، وطَفَتْ على السطح، وصية نَفَرٍ من المُسِنِّين، بإدخال اللمبات إلى قبورهم بعد الدفن، ولولا إنكار مشايخ ثقاة، من أقارب الخطيب الأزهريين، لنُفِّذَتْ الوصية وسادت.

طقوس بقيت، وأخرى أصابها التعديل، وثالثة زالت سطوتها تماما، بعد توغل فتاوى خميس ورفاقه - اللذين استمروا في مناداته بالدكتور-، في دهاليز عقول الخلق.

وبقت لمايكل طقوسه...

فمنذ اقتحم الدنيا، طفلا في يد جدته، وبعد حادث توهته صغيرا، مع من صارت زوجته، عندما فشلا في إدراك أمها بالقبور، نمى وعيه على الماسورتين، اللتين لاعبور إلافوقهما، أوفوق باب الدوار العملاق، المطروح عليهما قبل الجنائز مباشرة، كما نمى وعيه، على زيارات الموتى كل خميس، لدرجة انخلق معها، اصطلاح توقيتي، فيقال:

هذا خميس فلان الأول، أوخميسه الثاني، أو...

وبعد مرور الخميس السابع، يبدأ التجهيز لأربعين الميت، بعد مرور أربعين يوما على موته، حيث يجتمع أهله لزيارة مدفنه، قبل عودتهم إلى داره، ليقيموا أمامها جلسة محدودة، لاترقى لمستوى العزاء، ثم يكرروا المشهد في سنويته، بعد مرور سنة كاملة.

كما سُمِّيَتْ زوَّادَة الرحمة أيضا بالخميس؛ وهي المُراد توزيعها

على الزائرين، صدقة على روح المتوفى، من قُرَصٍ باللبن، وفاكهة الموسم والحلوى، فيُقال:
جهزوا خميس فلان - أي زوَّادَته -، التي تُحْمَل في طسوطٍ أومقاطف، فوق رءوس النسوة، وفي أيدي الرجال، أوبأجولة على ظهور الحمير، أوفي إحدى العربات القديمة، منزوعة اللوحات، إذا كان المرحوم من ذوي الشأن.
يقرأ مشايخ الزوادة الآيات - وهم غير أتباع خميس -، متحسسين طريقهم أومتسندين على بعضهم، بحكم كف بصر أكثرهم، متنقلين خلف المراقد، خاتمين بالدعاء، يحملون أرزاقهم عائدين، لاتنقص رحمةُ أي متوفٍ، عن ثلاثة أخمسة، من حق المُوسِرِين زيادتها، إلى أي عدد يشاءون.

ثم وبلا مقدمات مُحَدَّدَة، زال مجدُ الخميس، بانتقال الزيارة إلى الجمعة، في تغيّر جذري، لم يناقشه أحد، أويتوقف عنده، فكأنما اطمأن الناس لليوم المبارك، المذكور في القرآن، حتى بعد سؤال مفتش الأوقاف، عندما جاء ليلقي درسا، بالمسجد ذات عصر، أكد خلاله على استحباب الزيارة، بأيٍّ من اليومين، وأن الجمعة مستحبة لزيارة النبي - ﷺ - والأئمة، كما أن ابنته فاطمة – رضي الله عنها -، عاشت بعده خمسة وأربعين يوماً، تأتي قبور الشهداء، كل جمعة واثنين وخميس، والله العالم – هكذا أضاف المفتش -.
فيما أصر الخطيب، على أن تخصيص يوم أوليلة لاأصل له، ثم ختم مرددا الحديث الشريف، الذي أخرجه مسلم:" من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد".
حاول المفتش إفهامه، أنه لاخلاف على مضمون ما ردده،

لكنه يبقى في العموم، وليس وَقْفَاً على زيارة القبور، ليتوقف الدرس أخيرا، ويجرى جدل عقيم، لم ينقطع حتى بعد انصراف المفتش.

لكن تغيرات أخرى جرت، منعت مشايخ الزّوّادة، من تلقين الميت عقب دفنه، بما يجب عليه اتخاذه، من ردود أوتدابير، إذا ما جاءه الملكان (منكر ونكير)، ليسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

ورغم اعتراض المُلقنين، ومعظم المُسنين، فقد بدا الإقلاع عن هذا مقنعا، لمن أيدوا المنع، إذ استصعب المُقلعون، أن تُمْلَي على الميت شهادتُه، فكأنما هناك تَعَمُّد لتغشيش الممتَحَن، و"من غشنا ليس منا"، ولاينفع الآدمي بعد موته؛ إلاالصدقة الجارية، أوالعلم النافع، أوالولد الصالح، الذي يدعو له.

ومِن هنا جاءت منطقية أخرى، لاستبدال التلقين، بكلمة واعظة بعد الدفن، متبوعة بما يُسْتَحَب، من دعاء خالص، فالدعاء مُخ العبادة، والله قريب قريب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ولاأحد أحوج إلى دعاء المخلصين، ممن بات بين يدي خالقه.

بزوال دولة الخميس، أقيمت إمبراطورية الجمعة، وندرتْ زيارات الصغار، بعد استبدال الزِّوَّادة، بنقود تندس بأيدي المشايخ، تزيد أوتنقص، وِفْقَ مكانة المتوفى وآله، ومدى إعزازهم له وتأثرهم بفراقه، خاصة إذا ما ترك إرثاً محترماً، وقد يُعَقِّب الأهل، بذبح عِجل يُوَزَّعُ لحمُه، صدقة على روحه، أوالتبرع لصيانة المسجد، على أن يُذاع هذا، قبل أوبعد الصلوات، رغم امتعاض البعض، من فكرة الإذاعة هذه، وقد يأتي التبرع، سبيلا لماء الشرب، في صورة ثلاجة، أواستراحة معروشة، تُظِل مسافري العربات عديمة اللوحات، كما يُظِل نخيل الطريق،

الذاهبين والآتين من الغيطان والقبور، والساعين لاستذكار دروسهم، عقب يومهم الدراسي، كعادة قديمة نَمَتْ، لندرة الأماكن المُهَيَّأة بدُورهم، متخللين أوقاتهم بتناول التوت، الأبيض حسن السمعة، والأسود عالي الأشجار، الذي يتهمه الكبار بامتصاص دماء الموتى، كي يتراجعوا عن صعوده، تحاشيا لتبعات السقوط من فوقه، ناهيك عن تسللهم، إلى حقول الطماطم والخيار، بحثا عما يسد الرمق، حريصين ألايقلدوا الصبية الأصغر، في دَهْس شجيراتها، وإلاساقتهم عصا صاحبها، المُتَعَامِي عن وجودهم، طلبا لكسب الثواب، ووهب ما ينالونه رحمة لموتاه.

لكن الجُبن يحجبهم، عن اقتحام أرض البرتقال (أبودمه)، خشية بطش صاحبه شقيق السفير، الذي حرص ذات سَفْرَة خليجية، لتصدير الموبيليا، على حمل حقيبة مليئة بأفضل حبَّاته، كهدية يراها نادرة، فإذا بالمستورد الخليجي، يتهمه بالغش والخداع، وقد استولى عليه الهياج، لأنه كلما فتح برتقالة، وجدها مليئة بالدم، وهذا فأل سوء، وإنذار بالعداء، حاولَ أخو السفير إفهامه، لكن العناد ركبه، فألقى بالهدية وسط القمامة، ورغم تظاهره لاحقا بالتسامح، لم يتوقف ذِكْره للواقعة، على أنها نقيصة، تم ارتكابها في حقه.

يسترجع الرجل الواقعة، معيدا إياها، على مسامع صِبْية المذاكرة، وهو يتجول بين أشجاره، قُرب حافة القناة، بينما يصطفون هم جلوسا، لصق حافتها الأخرى، وبين الحين والحين، يلقي نحوهم ببعض الثمار، قائلا:

كلوا حلالا (بلالا)، ربنا يكفيكم شر الحرام.

فيسارعوا بالتقاطها، ممثلين أدوار حراس المرمى، ضاجين بالضحك، قائلين:

آل بدمه آل، هات ياعم هات!

بين القبور، تنتشر شجيرات الياسمين، بإغصانها الرفيعة المليئة بالشوك، إلى جانب نباتات عجوز، ذات أزهار شوكية أيضا، ترتفع عن الأرض قُرَابَة المتر، مشَكِّلة لوحة عجيبة، تتكاثر من حولها، نباتات ذيل القط، وعنب الذئب، وصبّار عشوائي الأصناف، يصر الخلق على استزراعه، بإصص مصفوفة خلف العيون، وتين شوكي يتنامى سريعا، ظل لسنوات يلقي ثمارا غزيرة، يترفع الزائرون عن تناولها، لنفس التهمة الموجهة للتوت الأسود، ونفس الظن الشائع، بامتصاصها دماء الراحلين، يتأملها مايكل متعجبا، من تناسقها الفريد، حتى وقت إمساكها عن الإثمار، خلال زوراته الشتوية، التي نادرا ما تفوته إحداها.

لكن الدائرة لازالت، تعيد على رأسه دورتها، بأنه وللمرة الثانية على التوالي، وقع فريسةً لغواية النوم، ولم يدرك صلاة الجمعة، ليقضي ركعات الظهر أولا، ثم العصر، بعد هروب النهار، واصلا إلى قبل المغرب بساعة زمن، منبها إياه أن طقساً هاما، لم يؤده بعد، فيسرع إلى القبور، مُحَمَّلاً بالشجن والحنين، بعد انفضاض اجتماعه مع الصحبة، على قارعة الطريق، ضاربا عرض الحائط، بفتوى سعد حسني، المُحَرِّمة أوالمحذرة، من الزيارة المتأخرة، فهو على أية حال، مدفوع بالعزيمة، كي يتم مأموريته، وبيدِ الله لابيده جاء التأخير، بل ربما فاقت زورات العتمة، زميلاتها النهارية، مستعيدا ذكرى رواية شهيرة، مؤداها؛ أن من زار موتاه قبل طلوع الشمس، سمعوا وأجابوه، ومن زارهم بعد طلوعها، سمعوا ولم يجيبوه.

عندما دعته المدرسة الثانوية، ليلقي محاضرة، مع مفتش الأوقاف نفسه، بمناسبة المولد النبوي، ثارت الأسئلة، ودار

اختلاف واسع، بين معتنقي آراء خميس وغيرهم، حول موضوعات عدة، منها مسألة توقيت زيارة الموتى.

ولأن محاضرة مايكل، لم تكن دينية بالكلية، ودار معظمها حول كيفية التكاتف، من أجل بناء مدرسة ثانوية مستقلة، فقد ترك الأمر هذه المسألة للمفتش، الذي جزم بصحة الرواية السابقة، مؤكدا ورودها بكتاب النوادر، عن الإمام الصادق.

بعد الجهر بدعاء دخول القبور، المتردد بداخله منذ غادر البيت، خص بالسلام ساكني عيون عائلته الأربع، بادئا بعينيّ الحريم، مرقد أمه وجدتيه الأقرب، وفلذة كبده الوحيدة و...، ناويا الانتقال لاحقا، إلى عيني الرجال.

لهذه العيون في نفسه، مكانة تقارب التقديس، يتناثر من حولها عَبَقٌ قديم، كما تتناثر الصور، المزلزلة لشغاف القلب، في كل مرة يحتّم القَدَرُ فيها، مُواراة جَسَدٍ عزيز.

في زيارة الجمعة الفائتة، طاوع رغبته في التجوال، بين الشوارع والبنايات؛ كم من عيون واطئة، تسكن جدرانها الرطوبة، لم تزل فتحاتها، تُغْلَق بالطين وكَسْر الحجارةِ المُهْمَلة، بينما تنغلق غيرها، بعجينة رملية صفراء أولا، تليها رصَّةٌ من الحجارة، مغطاة بطبقة أسمنتية، يُحْفَر عليها بغصن رفيع، اسمُ المتوفى وتاريخ وفاته، في حال عدم وجود، يافطة رخامية، جاهزة للتثبيت بالجدار الخلفي.

أعادَ تأمُّلَ تقيلدَ العزوني لغيره، في صب قطعة خرسانية، بحجم فتحة المقبرة تماما، يتم نزعها تماما عند استقبال أي ميت جديد، كما حدث عند دفن ابنته، ثم إعادتها كاملة كما كانت، مع الترميم حولها، بعجينة الرمال والأسمنت، لمنع دخول الهوام والحشرات، ومنع تسرُّب رائحة الجثة إلى الخارج.

وجد نفسه قُبالة قبور الصدقة، بسدتها التقليدية الطرية، فخطر له أن يسأل:
ماذا لو حَلَّتْ محل السدة الطرية، سِدَّةٌ خرسانية مُحكمة، كسدة مقبرة العزوني، هل كان بإمكان عمه، الذي عاد بكفنه، زحزحتها قبل العودة حياً، أم كان سينال مصير أخيه الذي تلاه، ويستسلم للموت إلى جوار السِّدَّةِ من الداخل؟
أما التطور الأكبر، فقد حل بقبور السفير وآله، بتثبيت باب حديدي مُصْمَت لكل عين، بمفصلات تفتح كأي باب، ثم تنغلق بعد الدفن بقفل كبير، في إشارة حاسمة، إلى ذهاب المدفون بغير رجعة، سواء كان ميتا بجد، أو فِي غيبوبة طويلة.
لكن إشكالية كبرى، تجتاح عائلة مايكل، بخصوص قبورها، اشتهر بطلها المغوار بِاسْم سوسة، وهو أحد أقاربه المشتغلين بالفلاحة، منذ وطئت قدماه الأرض، فبدا مُكَبَّب البدن، يحمل ظهره ما يشبه السِّنام، له وجهٌ لَوَّحَته الشمس، وعودٌ صلبٌ كألفاظه وقلبه، طغى اسم شهرته، على اسمه الحقيقي المُهْمَل، وقِيل أن سوسة ضربت عظامه، فتخلَّق سِنامُه هذا، عقب إجرائه عمليات بدائية في الظَّهر، أولعل السوسة ضربتْ إحدى ساقية، فخلَّفت له عَرَجَا دائما، أجبره على التَّقَوُّس، أما المتربصون به، فيُرجعون تسميته الشهيرة، إلى سعيه بين الناس بالوقيعة، كسوسةٍ تنخر العظام.
تُلاصِقُ عيون العائلة، قبور سعد حسني العالية، دأبتْ كلمات سوسة، على دق أذان الزائرين، بحتمية هدمها، وبناء أخرى جديدة، تطال قبور سعد، مقترحا تحويل كل عين إلى اثنتين، فتصبح ثمانٍ صغيرة، بدلا من أربعٍ كبيرة، وعليه حدث الانقسام المتوقع، بين الموافقين والرافضين.

وكما اختلف أيمن مع مايكل سابقا، حول مسألة تغطية الترعة، فانحاز الأول للتغطية، وانحاز الثاني للرافضين، انحاز أيمن لراغبي هدم العيون، وكذلك الولد مازن ابن أخيه، متزعم سكان البيت، محل النزاع الداعي إلى تقسيمه، وجاء مايكل، في طليعة رافضي الهدم، مما أوغر قلب سوسة، فشن عليه أشرس الحملات، مُشِيعا أن رفضه للهدم، ليس لوجه الله، وإنما خشية تحريك جثة ابنته - أو رُفاتها -، مضيفا إنه لايجوز لأي أحد، التحكم في الجميع، دافعا بادعائه في كل اتجاه، مفترضا التفاف الغالبية حوله، دون التفات إلى ما ذكره مايكل؛ عن حُرْمَة نبش القبور، والتهجم على الموتى، فالهدم قد يكسر عظامهم، ويذبح نفوس ذويهم، بتجديد ذكرى فقدهم، كما كرر أمامه حديث رسول الله - ﷺ - الوارد ''عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -، الذي يقول: كَسْرُ عَظْمِ المَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا.'' - وهو حديث رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه -، وعليه فمن كَسَرَ عظمةَ ميتٍ، وجب القصاص منه، عينا بعين وأنفا بأنف، والبادي أظلم.

لكن سوسة لم يعط لمغزى الحديث أذنا، ربما عن عدم فهم، ومن ناحية أخرى، نجحت حِيَلُه المُحَرِّضة، في إقناع أخوته الأشقاء، ليشتروا مربعا أرضيا بالبقعة الجديدة، الملاصقا للقبور القديمة، ودون إعلام أحد، وفي أقصر وقت ممكن، أقاموا عيونا أربع جديدة، ثبَّتوا بجدارها الخلفي، لوحة رخامية محفور عليها عبارة: قبور أولاد فلان - اسم والدهم، بدون لقب العائلة -.

لتبرز لأول مرة، فكرة ثالثة جديدة، تضاف إلى فكرة الإبقاء على العيون كما هي، وفكرة الهدم وإعادة البناء بتعديلاتها، حيث تتكون العائلة الأم، من عدة أُسَر، لكل أسرة كبيرٌ تُنادَى باسمه،

مثل والد سوسة، الذي بات اسمه ملتصقا، بقبور تخص أبناءه فقط، وبذلك تخلقت الفكرة الثالثة، التي جعلت بعض أُسَرِ العائلة، تبدأ في مناقشة أفرادها: ولماذا لانحذوا حذوَهم؟
فيما ظل هذا لدى الغالبية، غريبا وغير مقبول، فالكل دائما في واحد، منذ وعوا الدنيا، كإرث عتيد لايجوز تجاوزه، في الأفراح أوالأتراح، لكن الواقع بات مختلفا، والفكرة لم تعد مجرد كلمات، وأسرة سوسة رفضت اقتراحات تغيير الوضع؛ باعتبار عيونهم الجديدة، قبورا إضافية للعائلة ككل، مع رد ما أنفقوه عليها، بعد تحصيله من الجميع،...، وجرت معاتبات ونقاشات واعتذارات، لم تنجح في رأب الصدع، أوتجميل الحقيقة، ليبقى الحال على ما هو عليه، وعلى المتضرر ضرب رأسه في الحائط.

لكن أحدا لم يجروء، على تأييد مايكل، في تقليد أحد كبار القرية، الذي لجأ فجأة، إلى إضافة دور ثان، فوق عيون عائلته الأرضية، فتضاعف عددها، وهذا ما لم يكن موجودا، طيلة كل الحقب السابقة، إلا أخيرا في قبور الجزيرة المقابلة، أما عدم الجرأة فجاءت، خشية تشهير خميس ومن على شاكلته، الذين أفتوا بتحريم ذلك علانية، دون نص أودليل، فماذا ستكون فتاواهم، إذا ما أصر مايكل، على تنفيذ الفكرة؟
راهن الكثيرون، على انشغال سوسة ببنايتهم الجديدة، إلا أنهم تراجعوا عن رهانهم هذا، فأقدامه لم تتوقف، عن زيارة القديمة، ضاربا آذان الحاضرين، بكلمات الحث أوالتوبيخ، كي يسارعوا بالهدم ثم البناء، وبالطبع سيبقى هذا حقا له، فبها يرقد والداه ككل السالفين، يحتل مصطبة خلفها، قائلا: لن ندفن هنا أنا وأخوتي، إلاعمتي وجيدة، آخر عماتي الباقيات، وبعد ذلك سندفن هناك.

فيرد مايكل - حال تواجده -:
وهل ضمنتَ عمرَك؟ قد يخطفك الموت قبل عمتك!
فيأخذه التَّلَفُّتُ يمينا ويسار، وشفتاه مزمومتان بامتعاض.
جيش من السابقين، يرقد بالعيون القديمة، دون تأفف منها، أوإغلاق مدخلها في وجه القادمين، مُحْتَجَّةً بالتَّكَدُّسِ أوالامتلاء، عشرات السنوات مرت بلاقضية، حتى جاءت فتنة سوسة، الذي ساق ضمن مبرراتها، أن كل الغريبات المتزوجات بالعائلة، يوصين بالدفن بها لاعند عائلاتهن، والوصايا واجبة التنفيذ، كما أن مرور السنين، خلَّف لهن ذرية، تحمل لقب العائلة، منها من تزوج وأنجب، ومنها من ينتظر، وسوف يُدفنون أيضا بها، بعد قضاء آجالهم، ومن هؤلاء زوجتا العمين الكبيرين، اللتين ظلت الواحدة منهما، تفضِّلُ العَمَى، على رؤية الأخرى، فتم التفريق بين الأخوين، ببقاء أحدهما بالبيت الموروث المحدود، وانتقال الآخر إلى البيت، الذي أقامه والد مايكل، بالأرض الزراعية قديما، ومثار قضية التقسم حديثا.
وعلى العكس تماما - هكذا يرى سوسة -، فنساء العائلة؛ كأخوات مايكل وعماته، وأُخْتَيّ أيمن، المتزوجات بعائلات غريبة، يوصين بالدفن في قبور العائلة، بجوار الآباء والأمهات والأخوة والأخوات.
وكان حلا مناسبا قد لاح، لتوحيد الصف، وتجنُّب الهدم أوالبناء؛ إذ تُجَاوِرُ العيونَ القديمة، عيونٌ أقدم لعائلة أخرى، نقلت حياتها إلى عزبة مجاورة، وأنشأت بها عيونا بديلة، قال كبيرها:
لامانع من منحكم إياها، شريطة أن تدفنوا بها، دون إزالة أوتكويم رُفات موتانا.
فقال آل مايكل: أمين.

لكن سوسة انبري وحده، مُبلغا إياهم، بضرورة كَبْس رُفاتهم، بجِوال من الخيش، ودفنها بحفرة تحت الأرض، فما كان منهم إلاالتراجع، بل والتهديد بالشجار والشكوى، في حال الاقتراب منها.

قال مايكل لسوسة لائما:

كيف تبلغهم هذا البلاغ؟

ومن ذا الذي أفتى، بكبس رفاتهم في جِوال، أو...؟

وكعادته عند المُحَاصرة، اكتفى بالتَّلفُّتِ دون رد.

كما أوشك أيمن على النجاح، في مساومة صديقه سعد، على شراء عيونه الملاصقة من الجهة الأخرى، مقنعا إياه، بتقليد أبناء العزوني، وبناء غيرها بالبقعة الحديثة، تتناسب مع وضعه، بعد جريان الأموال في يده، إلا أن سوسة بخس بثمنها الأرض، دافعا سعد إلى الرفض.

على مايكل إذن، بعد تجاوز عينيّ الحريم، الانتقال إلى عينيّ الرجال، مَرْقَد جدوده وأعمامة وخئولته أيضاً، إذ ينتمي والداه لنفس العائلة، تُلاصق أولاهما مرقدَ ابنته، فيها رقد جسدُ أبيه؛ لم يجد منذ رحيله، حُضْناً آمنا يحتويه، ولا أُذُنا حنونة، تنصت إلى شكواه، فيرد قائلاً:

لاتغتَم يابُنى، سأظلُّ سنَدَك وظهرك، ولامشكله بلا حل، ارض ضميرك، وتوكل على خالقك.

أو: شد حيلك، وأي شيء دِيَّتُه المال، يمكن تعويضه.

أوما شابه ذلك، من أقوال لها فعل السحر، في تجفيف منابع الحزن، واندمال قروح الأرواح. كم تعَرَّى أمام والده، وهو ينهنه باكياً دون حرج، متجردا من أي تجَمُّل، واثقاً من الستر.

بمجرد ظهوره بين المراقد، يظهر مباشرة رجلان، كأنهما خرجا

من تحت الأرض، كعفريتين ممن حذره سعد، من إزعاجهم مع تأخير الزيارة، أحدهما عريض الصدر، قليل الكلام نادره، بطيء الحركة، يبدو كمن يدفن كُرَةً في بطنه، حول رأسِه منديلٌ معقود، ناشِع العرَق، تتدلى من تحته خصلة شعر، مُقْبِلة على تمام المَشيب. ورجل آخر قصير البدن نحيله، بلحيةٍ مدببة ووجه ممصوص، وشَعر أشعث فاحم.

يقشعر بدن مايكل حَرَجَاً، ليقينه بأن عيونهما تتابعانه، منذ وطئتْ قدماه المنطقة، تتبعه خطواتهما على الفور، النحيل في الأمام، بيده لوحٌ كرتونيّ مربع، يلقي به أرضا، أوفوق المصاطب، ليجلس عليه وراء القبور، خشية اتساخ جلبابه المتسخ أصلا، والآخر في الخلف، يُقَدِّمُ قَدَماً ويؤخر أخري، على شفتيه ترتسم، ابتسامةٌ نصف بلهاء.

بمجرد ثبات مايكل خلف العيون، قُرب رءوس النائمين، قابضا داخل جيبه، على شيء من العُملة الورقية، يدركه القصير السريع، شارعاً في تلاوة القرآن، بصوتٍ خشنٍ عالٍ، لايتناسب مع حجمه، دائما ما يعتريه الخطأ، في نطق كلمة أوأكثر، وعلى استحياء شديد، يبادره القابضُ على العُملة بالتصويب، فتُبْدِي ملامحُه أمارات الطاعة، محاولا إعادة التلاوة صحيحة، ومن جمعة إلى جمعة، تتكرر الوقائع، بنفس الأخطاء، ونفس التصويبات، لتخرج يده أخيرا من جيبه، مانحةً القاريء ورقة العُملة، هامسا في أذنه، بأنها صدقة على أرواح الموتى، وليست مقابلاً للقراءة، فيتناولها طائعا وعيناه تهربان، نحو فرع الصفصاف الذابل، وبقايا الاخضرار في سعف النخيل، فوق ظهور القبور.

أما الآخر البطيء، فينال قطعة معدنية أوأكثر، دون مشاركة

ولو بنصف آية، أوبدعاء يتيم، فقط ربما توجهت إشارته، نحو أوراق العطرشان المصْفَرَّة، بالإصيص خلف الجدار، وإلى شجرتي التوت الذكَر، بين أغصان الياسمين المزهرة، المتداخلة مع التين الشوكي والصبار، قائلا ببطء:
رويتهم من بدري.
تُمْسِكُ يُسراه بطرف جلبابه، ذي الخطوط الأفقية المبللة بالعرَق، وتمتد يُمناه متناولة القطع المعدنية، وهو يقول:
خلِّ، خلِّ؛ الست الحاجة أعطتني.
قاصداً إحدى القريبات، المفجوعة سابقا، بفقد ابنها الوحيد، تاركا بعده زوجة حمَّالةً همومٍ، وبنات أربع كبراهن بالإعدادية، وولدين لم يدخلا الروضة بعد، تحرص القريبة بشدة، على زيارة موتى العائلة، فبينهم يرقد جدودها أيضاً، وكعادة الرجل البطيء، تلقف أصابعُه نقودَها وينصرف، ممسكا عن الجهر بأية مشاركة.
لايبرح مايكل مكانه، حتى يلهج لسانه داعيا:''اللهم اغفر لهم وارحمهم، وعافهم واعف عنهم، وأكرم نُزُلَهم، ووسع مُدْخَلَهم''، مُتْبِعاً الدعاء بقراءة من القرآن بالإجمال، وسورتيّ ''الفاتحة'' و''القَدْر'' بالتخصيص، ثم يكرر ثلاثا:
السلام عليكم آل الديار، رحمكم الله.

هذا إذا سبقت زيارته صلاة الجمعة، أوجَرَتْ عقب أدائها مباشرة.
أما في مثل هذه المرة، الأتية قبل المغرب بساعة زمن، فلم يرها قصيرٌ أوطويل، فقط هم الفلاحون والفلاحات، المودِّعون للغيطان عائدين، بدوابهم وأحمال عَلَفِهم، وأكواز الأذرة وكُرَات القطن، وشيء من أسماك القنوات، على وجوههم المرهَقة، ترقد معاناة

اليوم الطويل، مُحَمَّلِين بأمل الخلود، إلى لقمة ساخنة وليلة هادئة، دون خلو قلوبهم، من محاذير اليوم الآتي.

عندما أعطى ظهره لقبورهم، في طريقه لتخطي معدية القناة، كانت رأسه قد خلت تماما، من أحداث وقفة الطريق قبل القدوم، فيما هاجمتْ أنفَه رائحةُ الميتين، وهى ليست رائحة جثامين مقبوضة الأرواح، وإنما رائحة كولونيا معروفة، لها عبوات بحجم زجاجات زيت الطعام، تتطيب بها أكفان الموتى، فتطغى رائحتها، في أنوف المشيّعين أوالزائرين، على أية رائحة أخرى، وتبقى هكذا لمدة، هاجمته تلك الرائحة، أثناء مروره بمحاذاة القناة، قُبالة مقبرة العزوني القديمة، مرة عند القدوم، عقب انفصاله عن أيمن وصحبه، ومرة عند انصرافه مُنْهِياً زيارته، الخالية من لقاء عفاريت الجن، التي حذر سعد من صحوها.

وهذه الرائحة، لاتعبق المكان هكذا، إلاَّبحلول ساكن جديد، لم يستقر بمدفنه، إلامنذ ساعات معدودات، ولأنه يجهل بعض البنايات، عديمة الأسماء واللوحات، حاول التعرف بدقة، على مركز انبعاث الرائحة، بمساعدة فطنته المزعومة من البعض، لكن الفطنة خذلته، رغم امتلاكه خبرة كافية، في التفريق بين رائحة الميتين هذه، وبين رائحة الجثث، منذ حضر الجنازة الغريبة، لبقايا جثة جار قديم، ابن إحدى أخوات العزوني، من رفاق الطفولة والصِبا، حيث وُجِدَتْ البقايا منهوشة، على جانب طريق ما، تبعد عن القرية، حوالي خمسمائة كيلو متر، وكم من قصص تواترت ولاتزال، عن ذلك الحدث المُغلف بالغموض، فقد تقلبت على الرجل مِهَنٌ عِدَّة؛ بائع جوال، تاجر خضروات بعربة حمار، مغربل حبوب، حلاق بليد، كخاله في صباه، إلى أن جَدَّتْ عليه سُمْعَةٌ واسعة، عن سعيه الدءوب للسفر، وعن تجارته في أشياء مجهولة، مع

مجهولين من بحري أومن قبلي، لاأحد يعرف بالضبط، حتى تنبه خاله وذويه، على استدعاء مركز الشرطة، للتعرف على أوراق تخصه، وبعض حاجاته، قبل أن يجازف أيمن، باصطحابهم في عربته القديمة، لِتَسَلُّم بقايا جثته، التي لازالت رائحتها، تسكن أنف مايكل، وإنوف مشيعي جنازته الليلية، رغم كَم العبوات المصبوب، من رائحة الميتين.
وفاةٌ لم تكن في الحُسْبان، مثلها مثل وفاة بكرية خاله الشهيرة، الراقدة منذ سنوات، بالمقبرة الملاصقة له، والتي زعمت رواية وفاتها الأولى، وجود جثتها تحت الكوبري، عارية بلا ثديين، تلك الرواية التي راحت وجاءت، لتستقر في النهاية، على رواية جديدة، زاعمة أنها لم تكن عارية، وأن حكاية الثديين هذه، محض اجتهاد خاطيء، والحقيقةُ إنها وُجِدَتْ، منزوعة الذراع اليُمْنَى، فخاطفوها - لامستدرجوها -، حاولوا النيل من فَرْجِها، فأسرعتْ بلصق كفها اليُمْنَى، مستميتة كي تحمي شرفها، ولَمَّا لم يجدوا معها حيلة، قطعوا الكف بذراعها، فسارعت هي بحمايته بكفها اليُسْرَى، فلم يجدوا حلا، سوى الإجهاز عليها بالخنق، وإلقاء جثتها بالترعة، ومن ثم جرفها المجرى البطيء ليلا، حتى وُجِدَتْ بعد بزوغ الشمس، ويُسراها لاتزال ملتصقة بين ساقيها، ليحل على العزوني بعدها، ميراثٌ جديدٌ ومختلفٌ، عن سيرة البنت، حيث كَتَبَ قبل اسمها، على مربع رخامي مُزْدَان، ثبَّته بحائط مقبرتها: هنا ترقد شهيدة العفة والشرف.

وعن هذه الكتابة، خرج خميس لرفاقه، بأكثر من فتوى استنكارية، جارفة في طريقها أيضا، هذين الرجلين - الطويل

البطيء، والقصير النحيف -، الدائبَين على استقبال مايكل وغيره، عند كل زيارة.

لم تكد خطواته العائدة، تنتظم فوق الطريق، حتى تفاجأ بعربة كارو، جحشها محدود الخبرة، يقودها صبي في أواخر طفولته، كابيا فوق حِزَمِ البرسيم، بدت ملامحه غير غريبة، فيما ظهر بأحد الشوارع، كلبان يتسابقان للخروج، مندفعيَن نحو المعدية، فهلع الجحشُ الغشيم، وإن هي إلا لحظات، حتى دارت به العربة، لتسقط وسط قناة الصرف، على يمين العائدِين.

فاحتْ رائحةُ المياه العَطِنَة، وهاج سُكان المكان، من هوام وضفادع وأسماك، استقر الولد على مقعدته، فوق كومة سِبَاخٍ لَصْق القناة، من خلال ردوده على الفضوليين، تبين أنه يتيم، من قاطني العزبة العشوائية، خلف مركز الشباب والمدارس من بعده، فيما استدار الجحش، ليرتطم رأسُه ومُقَدِّمَةُ صدرِه، بحافة القناة القريبة من المارَّة، وباتتْ بقيَّةُ بدنه، شبه مستقيمة مع العربة، وسط المجرى الضيق، وعيناه شاخصتان تستعطفان الحاضرين، أملا في الخلاص، فيما بانت لمعةُ الماءِ بعينيّ الصبي، ومايكل ينفض السباخ، عن ثوبه كالح الألوان.

تكوَّن عددٌ غيرُ مُتَوَقَّع، لِمُرتدِي البناطيل والقمصان، من معتادي الاستذكار سيرا، فوق الممرات الرفيعة للحقول، وحول النخيل وتحت الأشجار، تهاوَت محاولاتُهم مع مايكل، لإخراج العربة من الماء، أوتخليص الحيوان العالق من نكْبَتِه، كما أنهم لم يتمكنوا، من رفع حِمْل البرسيم، الذي تفككت حِزَمُه.

على نفس الطريق، وربما في نفس الموقع تقريبا، تذكر مايكل واقعة قديمة، زلزلت قلوب الخلق، عندما ضربت الصاعقة،عربتين

كارو بحصانين، مُحَمَّلَتين بقش الأرز، المجلوب للتخزين فوق الأسطح، كوقودٍ رئيس للأفران البلدية آنذاك، فقتلت أحد الحصانين صعقا، في لحظة واحدة مع العربجيين، كان أحدهما أخا غير شقيق لأم مايكل، بدا المصعوقان صَحِيحَيّ الجسدين، وكأنهما نائمَين، فوق حِمْلَيّ القش المبلول، بفعل غزارة الأمطار، ليدخلا القرية، في انتظار مسئولي الشرطة وطبيب الصحة.

بعد عدة إجراءات لازمة، أسرعَ الأهلُ بتمام الغُسل والتكفين، ومن ثم العودة إلى نفس الطريق، محمولَين داخل نعشين، ليُشَيَّعا إلى مثواهما الأخير، في مشهد ماطر، مليء بالعويل والصراخ والدعاء، مشهدٍ مُلَبَّدٍ بالزَّلَقِ والطين، تتداخل فيه أمواجُ المشيعين، الناظرين نحو السماء بِذُعْر، مع أي ضجيج رعديّ، خشية عودة الصاعقة، لتنقض على أحدهم بلا تمييز.

تكرر فشلُ ذَوِي البناطيل، في إنهاء بؤس الجحش أوعربته، رغم جماعية دعائهم وتوسلاتهم، لتنشق الأرض عن دراجة بخارية، وسط الغبار الثائر، تحمل أحد فلاحِي الغيطان، راكباً خلف جامع للألبان؛ إنه سوسة ذو السنام، صاحب الاقتراح المتكرر، بهدم القبور وإعادة بنائها، لم تستطع ملامح مايكل، إخفاء ضِيْقِها لرؤيته.

غامتْ الدنيا قليلا، وشحبت مساحات الشفق الأحمر، وبهتت خيالات الأشياء، واحتل الارتجافُ بدن الصبي، الذي بدأت نهنهتُه، تصل واهنة إلى الأسماع.

سارع سوسة بخلع جلبابه، طارحا إياه أرضا في صمت، فبدا سنامه أكثر وضوحا، ثم بادَرَ بالنزول إلى القناة، ومن مَوْضِعٍ ما، راح يُؤرجح العربة، موجها الجميع، إلى ما يجب عليهم فعلهً،

دقائق معدودة، وباتت العربة مستقيمة فوق الطريق، وجحشها مكسور الخاطر، يسير لاحقا بها.

كشف سوسةُ أمامهم، عن مهارةِ ساحرٍ هُمام، لاتتناسب في نظرهم، مع انحنائه أوحجم بدنه، صاح فيهم وكأنه استشرف ما يدور بأذهانهم:

خليكم في حالكم يا أفندية، وأعطوا الطبيخ لمن؟

رد مايكل مقهقها، بعدما رحل الضِيق عن صدره:

لطباخه يا معلم.

تزامنت العبارة، مع انطلاق أذان المغرب، وبات على مَن أتم زيارته، أن يهرع لإدراك الصلاة.

الإِرْث

كانت أرض مركز الشباب، وما وراءها من مدارس، ضمن منافع الأوقاف أوالإصلاح، لايعرف تفصيلها الدقيق، سوى قلة من المسنين، كقلة مثلهم باقية بمحافظات مجاورة، وبعض هذه الأرض، تعد أملاكا قديمة ، لأشخاص قليلين باقين بالقرية، وأشخاص كثيرون رحلوا عنها، مثل مايكل الأكبر وآله، حيث بقى بعضها بأسمائهم، وبيعت بعضها أونُهبت، ممن وكِّل لهم الاعتناء بأمرها، أو وهبت بعضها لآخرين، لقاء أي شيء متاح، حتى ولو كان هذا الشيء خادمة، كشقيقة جد سعد حسني، التي رحلت مع من تخدمهم، لقاء فداني الأرض، الذي وَرَّثَهما لأولاده ثم لأحفاده، وجرى ما جرى، بدخولهما ضمن الأحوزة العمرانية، لتصاب حياة أصحابها، بانقلاب زَلزل كيانها، فخرج من الشقوق، أشقاء سعد وأمثالهم، مطالبين بإعادة النظر، في أنصبتهم من الإرث، عقب ارتفاع سعر الأرض، بعدما ظلوا طويلا، قانعين بما يجود به زارعوها، من حصادِ كلِّ زَرْعَةٍ، وتَخَلَّقَتْ نزاعاتٌ وخصومات، أنهتْ اللقاءات الودية بعضَها، فيما بقى أكثرها شائكا.

لم يجد بعض مُلَّاكُ الأرض بُدَّاً، من إدراك ذويهم بالعاصمة، تاركين الموكلين برعايتها، ليديروا شئونها، فبنوا لأنفسهم ما بنوا، وأباحوا لأقاربهم ما لايُباح، ثم باعوا لحسابهم ماأمكنهم بيعه، وبقيت بُقَعٌ مجهولة متناثرة، بنى عليها آخرون بيوتا وورشا، مثلما بنوا تحت أعين المحليين، على سكة شرق الترعة، التي ظلت عُمرا، منفذا بديلا للخَلْق، كلما تعطل الأسفلت غربها.

وعن مايكل الأكبر وأمثاله، تأتي مندوبة سنويا، فيمنحها الموكلون قليلا من المال، زاعمين مماطلة المشترين والمستأجرين في السداد، لقلة ذات اليد وانتشار الفقر، فلما طالبتهم بأسمائهم ، منحوها قائمة عشوائية، حوت ضمن ما حوت، اسم شقيق السفير تاجر الموبيليا، الذي سدد ما عليه من أموال، ثمنا لعدة رُقَع زراعية، أضافها إلى إرثه من والده، وسَّعَتْ حيازتَه عن حيازة أخيه.

لم يكن الوكلاء يتوقعون، أن تقاضِي المندوبةُ، كلَّ مَن وَرَدَ اسمُه، بتلك القائمة العشوائية.

أشارت زوجة مايكل عليه، برغبتها في التنازل، عن إرثها من الأرض لأخيها السفير، فتعود حيازته لتقترب، من حيازة أخيه التاجر، فأكد مايكل لها، بأنها وحدها صاحبة الإرث، وبأنه لايحشر نفسه بين الأشقاء.

وعبثا حاولت توليته الأمر، إلى أن جاء رد السفير، مخالفا للسائد آنذاك، تجاه إرث البنات، حيث أعرب عن رفض اقتراحها، مصرحا بأنها لو رغبت في أرضه هو، لمنحها لها راضيا، فيما استولى الغضبُ على شقيقهما التاجر، عارضا قبول تنازلها له، لكنها تخلت عن اقتراحها، مفضلة بقاء الوضع حسب الشرع، كما أوصى والدهم قبل الوفاة.

استعاد مايكل شيئا، من آخر خطبة حضرها، قبل الجمعتين الفائتتين، حيث افتتحها الخطيب، قائلا - بعد الحمد والثناء -: أيها الناس: شاعت بينكم، جريمة أكلِ ميراث البناتِ، تقليدا لأبي جهل وأبي لهب، وعَبَدَةِ الأوثانِ، فهل آمنتم ببعض الكتاب، وكفرتم ببعضه؟!

- ثم جمع شَعْرَ لحيته في قبضته، قبل أن يواصل زاعقا:.

لاأقول هذا افتراءً عليكم، فأنتم تُصَلّون، إيمانا بقوله تعالى، بالآية الثالثة بعد المائة، من سورة النساء:''إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً''، ولسان حالكم، أنكم لاتؤمنون بقوله تعالى، بالآية الحادية عشرة، من نفس السورة: ''لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ''.

بدا الخطيب وكأنه يستعرض، مدى حفظه للآيات بأرقامها.

- بدا التململ على بعض الحاضرين.

- عاجلهم الرجل، بنفس حِدَّةِ الزعيق:

لاكلام أثناء الخطبة ولاسلام...، آتوا البنات حقوقهن، آتوا البنات حقوقهن.

ثم أخذ عدة أنفاس، قبل أن يُكمل بهدوء:

كما تؤتون الرجال.

-...

ووالد مايكل حقيقةً، لم يترك له سوى بيته هذا، الذي جاء بمُثَمِّن له، مانحا كل أخت من أخواته، ما حقَّ لها من نصيب، إلا صغراهن زوجة السفير، التي أقسمت على نفسها، ألاَّتنال منه شيئا، قالت:

تكفينا دَخْلَتُك علينا.

قبل دعائها له، بطول العمر ودوام العافية.

فيما لم يتدخل رَجُلُها، من قريب أوبعيد، رغم حصول أخته - امرأة مايكل -، على إرثها كاملا، وحتى بعدما رغب شقيقه، تاجر الموبيليا الأكثر حيازة، في ضم أرض أخته - ثم أرضه بعد ذلك -، لم يتأخر عن مساندته، في مواجهة نُظَّار الأبعدية، اللذين زجُّوا باسمه، في قائمة المماطلين، المعطاة لمندوبة المُلاّك، رغم تسديد

ما عليه، حتى عادوا ليقروا بخطئهم، مُدَّعِين ورود اسمه في القائمة بالخطأ.

مع قدوم المندوبة الأخير، أشاع الموكَّلون أن مجيئها هذه المرة، لتحرم القرية من مركز الشباب، ومن المدارس المُقامة، على جزء من أملاكها، فهاجَت مشاعرُ العامة، وبالغوا في التطاول عليها، وطاردها الصبية بالحجارة والسباب.

أسرعتْ السيدة بالمغادرة، مُقْسِمَةً ألاَّتعود ثانية حَيَّة أوميتة، لاهي ولا أيٍّ من أهلها، تاركِين ما حقهم إرثه، لمن لايستحق الإرث.

في محاضرته بمركز الشباب، جاهر مايكل باستنكار الواقعة، لائما المحرضين عليها، فالحق أحق بأصحابه، وأملاك هؤلاء تبقى أمانة، لهم ولوارثيهم من بعدهم، معلقة بأعناق المؤتَمنين عليها، دون النظر إلى أحداث سالفة، أدت إلى تفتيت الأملاك، أورحيل أصحابها.

لم يأت هذا، على هوى الكثيرين، فيما أفتى خميس وخطيب الجمعة، بعدم أحقية الراحلين في هذا الإرث، لامتصاصهم دماء الشَّغِّيلة، طوال عديد السنين، وعلى المتشدقين بغير ذلك – أي مايكل وأمثاله -، لصق ألسنتهم في قعور أفواههم.

وكانت هذه من المرات القليلة، التي توافقت فيها رؤية خميس والخطيب، مع رؤية العِتر، الذي ساهم في مطاردة السيدة، وخطف غطاء رأسها، محذرا إياها من العودة، وإلا أسكنها قبور الصدقة.

أعاد ذلك على الأذهان، ذكرى اعتدائه على زوج خالته، بطريقة احترافية، لم تُخَلّف ببدنه جُرْحَا واحدا، دون اعتبار لغضب والده، أواحتجاج والدته، قليلة الحيلة أمام بطشه، ثم ضرب رأس نفسه بالحائط، صانعا شَجًّا دَامِيا، قبل التوجه إلى الشرطة، ليقدم بلاغا في الرجل، بمساعدة أحد معارفه من أمناء الشرطة، كما حصل من

المستشفى، على تقرير طبي، أدى في النهاية، إلى حجز زوج الخالة، وتلقينه درسا في الإهانة والتعذيب.
لكنه على أية حال، يبقى محظوظا، إذا ما قورن بمن بالوا على أنفسهم، أوخرجوا بعاهات مستديمة، أولقوا حتفهم بالأقسام، ومنهم ما تداوله (الفيس بوك)، عن أحد شباب الأسكندرية، الذي مات متهما بحيازته للمخدرات، ولعل هذا يُعد سببا جديدا، لدعوات التظاهر في عيد الشرطة، إضافة إلى رفض قانون الطواريء، وحيثيات أخرى.
وحكاية زوج خالة العِتر، تتعلق بفدان جده الراحل، الذي تركه لأمه وخالته الوحيدة، ولأن الجد لم ينجب ذكورا، حق لأقاربه المشاركة في إرثه، لكنه لحسن الطالع، عَدِمَ الأخوة والأخوات، كما آثر أقاربه الأبعد السلامة، تجنبا لبطش العِتر، الذي بات الفدان تحت يده، ليأتي زوج الخالة مطالبا بنصفه، كحق شرعي لامرأته، وعليه ثارت الثائرة، التي لم تنته إلابحجزه، وتعذيبه بالمركز، ثم اتباع عدة خطوات أخرى، ساعدت على خروجه، مقرا بالتضامن مع زوجته، بملكية العِتر للفدان، وبأنهما بريئان من أية علاقة به.
وموضوع الإرث بالقرية، يحفل بالعديد من المضحكات المبكيات؛ وما موقف الخطيب السمين القصير، من أخواته ببعيد، إذ يرى أنهن تزوجن، في حياة والدهن، بما يزيد عن إرثهن المزعوم، لكنه مع ذلك لم يمنع خطبته، من التنديد بآكلي ميراث البنات، الذين إذا نصحهم الناصحُ، قالوا: إن البنات لايرثن أرضًا. أوقالوا: لماذا نعطيهن، وهن في أعناق رجالٍ أغنياء؟
وراح البعض بالسعي، بينه وبين أخواتهِ، مستبعدين وصول نفقات زواجهن، إلى قيمة حقهن في الإرث، البالغ عشرة أفدنة، وبيت متعدد الطوابق، ومحل للأدوات الصحية، هذا على فرض ما

لايجوز، وهو أن ما أُنْفِقَ عليهن، في حياة أبيهن، يمكن اعتباره إرثا.

ورغم أن خطبته الأخيرة، تعد الحافز الأول، لدفع مايكل إلى زيارة أخته، فإن قدَمَ صاحب الخطبة، لم تَقْرَبْ دُورَ أخواته، منذ انفتح موضوع الإرث، كما انقطعت أقدامهن عن داره، التي لهن فيها حقٌّ مشاع.

وكان والد الخطيب وأخواته، قد أمسك عن تقليد المتعجّلين، بتسجيل أملاكهم للأولاد دون البنات، خشية الانتظار لبعد انتهاء آجالهم - الآتية حتما -، فتنتقل أجزاء منها، لبناتهم المتزوجات، أوفي انتظار الزواج، من رجال غرباء غالبا، ومِن ثم تنتقل تلك الأجزاء، إلى هؤلاء الغرباء، فتنقُص أنصبة الوارثين الذكور.

حتى في الحالات القليلة، التي وزع فيها الآباء في حياتهم، أنصبة على جميع الأبناء، وتسجيلها في عقود، تقع أيضا مفارقات؛ فالأولاد لهم الأرض العفيَّة، الأقرب من مصادر الري، وللبنات الأقل والأبعد، ولابأس من إضافة جزء هنا، في عقود الأولاد، يقابله خَصْم هناك، والبنات قلوبُهن كبيرة وكسيرة، ولأخوتهن سوف يمنحن التسامح، ومن ذا سيودُهُنَّ بالأعياد والمناسبات، سوى أخوتهن الذكور؟

أما إذا تصادف بقاء واحدة، دون زواج بعد التقسيم، فالرفْضُ دائم لمن يطلب يدها، بدعوى طَمَعِه في إرثها، ولابد من عريس ميسور، لايجور على مِلكها.

حتى تتكفل السنون بإكمال مسرحيتها، وتئن الوريثة من العنوسة، يحدو أخوتها وزوجاتهم الأملُ، في قصف عمرها، واللحاق بوالدها الراحل، علَّهم يتقاسمون نصيبها، الذي يرون سابقَ أحقيتهم، في توزيعه عليهم، قبل وفاة الوالد!.

ليصيب البنت أخيرا الرضوخ، متسولةً أقرب المتقدمين لها، مع تنازل غير مسبوق؛ كأن يأتي متقدما في السن، أو أرملا، أوحتى مُعْدَما، والمبررات جاهزة، على شاكلة: خذوهم فقراء يغنكم الله، والغِنَى غِنَى النفس، ولامانع من الاستعانة، بفتوى الشيخ خميس، الذي حاول أيضا الاستعراض بما يحفظ قائلا:-
ألم تقرءوا قوله تعالى، في سورة النور:
''...إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...''- آية32-.
ماذا دهاكم أيها البشر؟!
...-
وهاهو بيت عم مايكل، يقدم حالته؛ لم يزل ساكنوه، بعد طرد الأم، لابنيها الأوسطين - أيمن ومحمد -، يكثفون إلحاحهم لتقسيمه بينهم كالإرث، وهم ليسوا سوى أرملتين بأولادهما، للابن الأكبر – السلاب -، والابن الأصغر – حامد -، اللذين أبْقَتْ أمهما عليهما بالبيت، لكن الوفاة عاجلتهما سريعا، فحقَّ للوالدين ميراثهما، فيما لايحق لأرملتيهما أو أولادهما، ميراث الجدّين حَيَّين أوميتين، إلا بوصية واجبة، بما لايزيد عن الثلث، وهذه الوصية غير موجودة.
بدأت المطالبات، قبل وفاة العم وامرأته، واشتدت بعد وفاتهما، مع تجاهل حق المطرودين الحيين، بحجة غضب الأم عليهما قبل وفاتها، وكذلك تجاهل حق اختيهما، اللتين تزوجت إحداهما، بعزبة على يمين القرية، والأخرى بالكفر الواقع على يسارها، الذي وصلت إليه قديما، أقدام مايكل وامرأته، أثناء رحلة توهانهما وهما طفلين، في تباعد غريب، يتوافق في دلالته، مع تباعد بيتيّ أخويهما الباقيين، فأحدهما يقع أقصى يمين القرية، والآخر يقع أقصى اليسار.
قال المطالبون لمايكل:

أنت أكبر المتعلمين بهذه العائلة، ولو أبوك المرحوم عاش، لتكفل بالحل، لكن البركة فيك، ومَن خَلّفَ ما مات.
والحق هنا لم يتجاوزهم؛ فبيت العم - كما هو معروف -، لم يُبنَ إلابمعرفة أبيه، في ظروف يصعب تكرارها.
قال مايكل:
كلام جميل، ولكن...
قالوا:
لاتقل ولكن.
ليظل إرث البيت، مَحَلَّ خَلْطٍ ما بعده خلط، وجلسات وراء جلسات.
تبدأ الجلسة عادة بأحاديث تمهيدية، بعيدة عن صُلب الموضوع، حيث تصيب النرجسية المتواجدين، جاعلين من أنفسهم، أبطالا لأحاديثهم؛ فيكرر أيمن موقفا، يراه مُجَسِّدا لشجاعته؛ اختلف فيه مع مُمَرِّضٍ بالمستشفى، أثناء تركيب قسطرة، لتصريف بوله المحتبس، وكيف أنه سَبَّ جدود المُمَرِّض، وهَمَّ بالعَدْوِ خلفه، والقسطرة معلقة به.
أما العزوني، فلم يترك فرصة، إلا وأعاد ذِكْر كف البنت، الملتصقة بين ساقيها، كدرعٍ واقٍ لشرفها، مرددا باعتزاز:
أمااال...، البنت شرف أهلهاً، والشّرف لايوزن بالمال.
يكمل:
ألف رحمة عليها، ورَّثَتْنا سيرة عظيمة، للعِفَة ومتانة الأصل.
ويخطف سوسة - نادر الحضور - الكلام؛ فيعض على أنيابه، مستعيدا ذكرى تَحَمُّلِه، لعملية أجراها بعظْمة ظهره الناتئة، وصَفَه بعدها الأطباءُ بالبطل. ثم يحاول العروج، على موضوع هدم قبور العائلة، وإعادة بنائها، فتُوقِفه نظرةُ مايكل المُحَذِّرة.

يظل الحديث سجالا، حتى يطلق العزوني تنهيدة سحيقة، يقول بعدها:
خَلُّونا نصلي على النبي.
يردد الحضور، وهم يعدِّلون أوضاعَ جلساتهم:
اللهم صلِّ وسلم عليك يا نبي.
يسود الصمت قليلا، ثم يحلُّ مَحَلَّه اللَّغَطُ، بِتَدَخُّل نسوة البيت، وتبدو في الأفق بوادر شِجار، سرعان ما يشتعل، فتبوء الجلسة بالفشل.

جمعتْ إحدى الجلسات، بين مايكل المضطر للجلوس، وبين خميس ونفر من أتباعه، أتي الخطيب على رأسهم، المُجْبَرِين أيضا على التدخل، استجابة لإلحاح السكان، حتى لايُشاع عنهم التخاذل، في إصلاح ذات البين.
مالَ خميس على أذنه، هامسا في شيء من التودد، أوالتأنيب:
ماذا يجبرك، على حمل اسم كهذا يا رجل؟.
ليكمل الخطيب:
كَم وددنا الجلوس معك، لكن اختيارك لهذا الاسم يعني...
رد مايكل، فيما يشبه المزاح:
وهل أنا مَن اختار الاسم يا مشايخ؟
طيب ما رأيكم في اسم فاطمة؟
قال خميس:
هذا اسم امرأتك، ماله؟
تابع الخطيب:
لابأس باسم المرأة، لكن الوَلَدَين التوأمين لأختك الكبرى، يحتمل اسماهُما هذا وذاك.

رد خميس مُؤَمِّنَا:
فعلا، فتحي ومجدي.
قال مايكل:
لم نأتِ هنا، إلابخصوص البيت.
حَطَّتْ نظرات الخطيب عنده ثم ارتفعت، قال أخيرا:
مالك أنت ومسائل الإرث وخلافه؟ عموما لن تقم لمحاضراتك، قائمة بعد اليوم.

وكانت محاضرات مايكل الأخيرة، بالمضيفة ومركز الشباب، قد نددت بالتخاذل، في توزيع الميراث بالعدل، مما أثار ثُلَّةً من الخلق، يواظبون على الصلاة، لكن موقفهم من الميراث والزكاة، يمثل لغزا مُحيرا، كما أثار حفيظة خميس وأتباعه، اللذين يرون أنفسهم فقط، أصحاب الحق في الحديث عن أية مسائل، وعلى رأسها مسألة الإرث، في أي وقت يشاءون.
قال مايكل:
الدين لله، وأنا لم أبتدع رأيا...
فتل خميس لحيته بين راحتيه، وهمَّ بالوقوف قائلا:
دَخَلَ وقتُ العشاء، ولم ننل أية راحة، منذ كنا بالجنازة.
كانت القبور قد غصَّتْ، ظُهر يومهم هذا بالناس، حيث اصطدمت سيارة منزوعة اللوحات، بسيارة أيمن وهي واقفة، وأسفر التصادم عن وفاة صبي يتيم، والده غريب مُتَوَفًّى، تسكن أمه ببيت موروث، مع أخيها جار سعد حسني، وهو نفس الصبي، الذي سبق وسقطت به، عربة الحمار بالبرسيم، في قناة الصرف أمام القبور، ولولا سوسة لصعب إنقاذه، وإنقاذ جحشه الغشيم.
تَكَفَّلَ سعد بشراء الكفن، فيما تبرع أحد تجار السيراميك،

مع أخي السفير كبير تجار الموبيليا، بتجهيز غذاء المعزين الأغراب، ومشايخ خميس، المتكفلين بالغُسل والخطابة، قبل وبعد الدفن، لقاء تبرع مالي، يزعمون احتياجه، لاستكمال زوايا الصلاة.

عَدَّلَ خميس الغُتْرَة الخليجية فوق رأسه، ثم انتفض قائلا: هيا يا مشايخ هيا، سوف نكمل بجلسة قادمة.

هل كان على مايكل إخبارهم، بأن والِدَهُ أسماه، على اسم مايكل الأكبر، ذلك القبطي سابق الذكر، الذي كان يسكن الجزيرة المواجهة، دون أن يخطر على بال الوالد تصنيفه، وِفْقَاً لدين أولون أوحجم، فوالده كتاجر للمواشي، وجامع متجوِل للألبان، لم يشغله سوى حُسْن الأخذ والعطاء، وهو ما وجده لدى الرجل، ومنها منح بعض أمواله للمحتاجين، اللذين كثيرا ما جاءوه بعقود أوتنازلات، عن قطع أرضية يمتلكونها، دون أن يكلف نفسه، بالذهاب لتعيينها بنفسه؟.

لقد رحل الوالد مبكرا، مخلفا لابنه، ذي الاسم محل الاعتراض، إرثا ثقيلا يتعلق بالعائلة، وبالأخوات تحديدا، فيما شب هو، فلم تر عينُه صاحب الاسم الأصلي، الذي باع أرضه بالجزيرة، ووكل من يقومون على بيع أوإيجار، القطع الباقية بالقرية، وما صحبها بعد ذلك من أحداث، بعد رحيله إلى العاصمة، لاحقا بأولاده ومعارفه، الذين تعلموا بالجامعات، واعتادوا سَكَن العمارات، وعملوا بالإذاعة والتلفزيون، وامتلك أكثرهم صفحات على (الإنترنت)، تشارك في الدعوة، إلى تظاهرة يوم الشرطة، ولاعبوا كرة بنواد شهيرة، ليس من بينها، نادي العزوني المُحبب أوغريمه الأزلي.

تُرى هل يساعد الظرف مايكل – الصغير-، على لقاء بعضهم

يوم التظاهر، خصوصا بعد التعرف على بعضهم، عن طريق مواقع التواصل؟

بعد انصراف المشايخ عن الجلسة، انفتح كالعادة حديث عشوائي، استهله العزوني معترفا، بكثرة هزائم فريقه، ملقيا باللوم على أحد خئولته المرحومين، الذي وَرَّثَه التشجيع، واعترافه هذا لاقيمة له، في مسألة الهزائم، كما أن لومه لخاله، لم يمنعه من استمرار تعصبه، الذي يشبه استمرار فخره، بأنه لم يرث عن سابقيه حتى المقبرة، لكنه علَّم أولاده تعليم الوارثين، وأنه رغم محاولاتهم مساعدتة، واصل عمله كفلاح، مكررا قوله: تموت الحرة ولاتأكل بثديها.

فإذا ذكَّره أحد بتقدُّمِ سِنّه، وبحقه المشروع في الراحة، والتمتع بعطاء الأولاد، ضربت كفُّه اليسرى، زِنْدَ ساعده اليمنى، قائلا:

أنا لااستطعم اللقمة، إلا من كَدّ ذراعي.

يطلق ضحكة مهزوزة، داعيا لأولاده، بسِعَة الرزق وصلاح النَّسْل، ثم يتملَّكَه السُّكُوتُ، قبل أن يهمس بانكسار:

اللهم ارحم ابنتنا وابننا الشهيد، وانتقم من الظالمين.

- ولإخراجه من تلك الحال، يعاجله مايكل سائلا:

ألاَّ بالحق يا عزوني، ما أخبار ابنك المقيم في ليبيا؟

- يهز رأسه مجيبا بهدوء:

امرأته الجديدة ولدت بنتا، والحال هناك لاتسر.

-...

- خلافات وقلاقل، ومعظم المصريين يفكرون في العودة.

- أطلق مايكل زفرة حارة، وهو يهمس:

تونس وعدت معها، وليبا ربنا يستر عليها، و...

- قاطعه العزوني:
ومصر على وشك.
حرَّكَ يديه حول أذنيه، مقلدا مشايخ التلاوة، ثم مال على مايكل، قائلا:
سيبك أنت، فيم كان همس خميس وحاشيته معك؟
- صمت مايكل قليلا, قبل أن يجيب:
أبدا ...، كالعادة يكيلون لي اللوم، على كلامي حول الميراث، وعلى توأميّ أختى الكبرى، معتبرينني مسئولا عن تسميتهما، أما اللوم الدائم كما تعلم، فهو على اسمِي نفسه، الذي لم أشأ الخوض أمامهم، في مبررات اختيار والدي له.
أخذ نفسا عميقا ثم أضاف:
لعل من سوء حظي، أوحُسنه - لاأعرف -، عدم رؤيتي لسَمِيّي مايِكل الأكبر، وإن أوصَلَني والدي عنه، احتفاظه بعقود وأوراق عديدة، تفيد امتلاكه لمساحات بالقرية، ربما لايعرف أماكن أكثرها، كما مدَّني بأطراف أخرى من أخباره، ليس من بينها، حيثيات تواجده بالجزيرة، قبل رحيله عنها.
- تمطَّع العزوني فاردا صدره، مُطلقا ضحكة غير مبررة، قال:
حقيقةً أنا لاأعرف شخصيا، لكن خالي الذي علمني تشجيع الكرة، دأب على تَغْذِيَةِ أذنيّ بحكايات عنه، قد تشفي الغليل، حيث كان يعمل لديه، على ماكينة الري وجراره الزراعي.
وقبل أي استفسار لمايكل، واصل:
كما أخبرني خالي أيضا، بحكاية نادرة تناقلها الكبار، عن أحد جدود الخطيب؛ الذي اقتحم قبر أخيه الأصغر ليلا، بعد دفنه بساعات، ليأخذ بصمته على أوراق تفيد، بيع أرض الميت له قبل الوفاة.

- سأل مايكل دهشا:
لكن كيف تسربت تلك الحكاية للناس؟
- ودون التفات إلى السؤال، استمر العزوني قائلا:
... وفي اليوم التالي للوفاة، سأل الأهل مرارا، عن أخي المتوفي المقتحم، كي يصحبهم في زيارتهم إليه، دون جدوى، ليكتشفوا عين المقبرة المفتوحة، وعندما دققوا النظر داخلها، متوقعين نهش أوسرقة الجثة، فاجأتهم نومة أخيه إلى جواره، جثة بلا روح، قابضا على ختَّامة البصمات، وسط الأوراق الممهورة بالبصمة، لتدور دورات ومشاورات، وخلافات لاتزال بعض آثارها سارية.
- سأل مايكل باستغراب:
ما اسم هذا الجد يارجل؟
تجاهل العزوني السؤال أيضا، مسارعا بغلق الحكاية، ليكمل حديث مايكل الأكبر، بعوده الفارع و زُرْقَة عينيه، وإتقانه لهجة البلاد، والتزامه بأعرافها، لدرجة تقبُّله إهداءات الحُجَّاج، من سجادات ومسبحات، بابتسامة عريضة، وهو يردد:
حج مبرور وذنب مغفور.
ولا يتأخر أبدا، عن تقديم إحداها للخال، إذا ما لمحه يتوضأ، بقناة الماكينة المبطنة بالأسمنت، فإذا فرغ الخال من صلاته، سحب السجادة نافضا إياها، قبل إعادتها للرجل، الذي يتناولها هامسا:
حَرَماً.
فيرد الخال بتلقائية:
جَمَعَاً إن شاء الله.
بينما تتملكه الدهشة، لعدم رؤية الرجل يوما، وهو يُقَدِّم صليبا لأحد، أومجروراّ إلى حديث، عن الأديان أوالأجناس أوحتى

الأسماء، فقط ربما يلمح الخال، وَشْمَ الصليب الأخضر، فوق ساعِده قُرب الرُّسْغ، عندما يرفع ذراعه لأعلى، فيهبط كُم جلبابه حول ساعده، متكوما عند مِفْصَل الكوع، وسرعان ما يعود الكُم إلى حاله، مُخْفِياً الوَشْمَ، بعد هبوط الذراع إلى أسفل.

ورغم اعتياد الخال، ومعظم أهل البلدة آنذاك، على مناداته بالخواجة، فإنهم لم يفكروا في سؤاله، عن سبب هذه التسمية، المرتبطة في أذهانهم، بالأجنبي القبطي غالبا.

ومايكل الأكبر حقيقةً، ليس من أهل الجهة، ساهمت حاجة الناس، في عدم انشغالهم، بأسباب توطُّنه بالجزيرة، رغم خلوها من البشر، إلا قليلا عارضا من الصيادين، وازدحامها بنباتات عشوائية، تتخللها أشجار النخيل والأعناب البرية، تعطر أجواءها زهور الياسمين، المتلألئة فوق أشجارها، مع روائح الزهور مختلفة الألوان، ناهيك عن الحيوانات والطيور، فبدت وكأنها موطن للجمال، الذي بدا وكأنه ظَلَّ حائرا مشردا في الكون، يبحث له عن موطن يناسبه، حتى عثر على الجزيرة، فأسرع بالهبوط متحللا من أحماله، ليتخذ منها موطنا أبديا.

ربما وُجِدَتْ علاقة ما، بين إقامته بها، وبين مرور الحملة الصليبية، على ناحية شرباص، المواجهة لشاطيء الجزيرة الشرقي، تلك التي أُسِر قائدها لويس التاسع، واقتيد لسجن دار ابن لقمان بالمنصورة.

هل كان والد الرجل أوأحد جدوده، جنديا فرنسيا بالحملة، واستوطن الجزيرة بعد فَرَارِه أوتخلفه عنها؟

هل أرسل لاحقا، لامرأته الفرنسية لتلحق به، بعد تواصله مع فرنسيين آخرين، حلوا بالعاصمة وقتها، لسبب أولآخر؟

وإن كان ذلك كذلك، فهو حتما تواصَلَ، مع نفرٍ من قرية

شرباص، لتجهيز ما تيسر، من أرض الجزيرة البكر، قبل استزراعها، كما تواصل مع آخرين، من قرية مايكل الصغير، ومنهم خال العزوني المرحوم، مستعينا بهم في أشغال أخرى.

كما أن توَطُّنَه هذا، يبقى سببا مؤكَّدا، لتوطُّنِ آخرِين من القريتين، وما تبع ذلك، من وصول المياه العذبة والكهرباء إليها، وبناء مسجد محدود، انضم حديثا للأوقاف.

حتى القبور خصوها بمكان مُسَوَّر، وبنوها دورا واحدا، أودورين، في تقليد جديد، اتخذ خميس مَنه موقفا مضادا، فيما استرجع العزوني ملامح الشفقة، في عينيّ صديق قديم لخاله، من سكان الجزيرة، فترة بحثه عن ابنته الغائبة، مؤكدا استعداد مقبرته لاستقبالها، إذا شاء حظه العاثر، أن يجدها جثة، ولم يتراجع عن مطلبه، إلا بعد التأكد، من اقتراض والدها من أيمن، وبناء مقبرة باسمه.

لم يكد العزوني، يصل في الحكي إلى هذا الحد، حتى تَمَلَّكَه الشجن، ليعيد على نفسه صامتا، تفاصيل تتعلق بالبنت، بداية من مَدّ يد المعلم إليها بالمداعبة أولا، ثم بالعقاب حال تمنُّعها، مما يرجح كفَّة تورطه، في تدبير اختطافها صبية، بمساعدة آخرين، نفذوا مخططا شيطانيا، بعد الفجر مباشرة، عندما كانت في طريقها، إلى حنفية المياه العمومية، حاملة بلاصها الفخار، لتخطف دورا أودورين، قبل استيقاظ النسوة، فتغُصُّ الحنفية بهن، ويستغرق الدور الواحد وقتا مضاعفا.

تُرى هل فشل المعلم، في افتراس الصبَيَّة، فتركها نهبا لشركائه، اللذين لم يجدوا ردا، على فشلهم أيضا، سوى خنقها، قبل التنكيل بجثتها العارية، بنزع ثدييها - حسب الرواية الأولى -، أوقطع ذراعها اليمنى- حسب الرواية الثانية -، التي تُرضي غرور

ذويها، وتُحَمِّل ذاكرةَ القرية، بحكاية عن البنت، التي عادت جثة جرفتها المياه، حافظة نفسها من عدوان اللئام، فأحَلَّتْ على أهلها، ميراثا من الفخر، بدلا من الرواية الأولى، الخالية من إشارات المقاومة، قبل تسليم الروح إلى خالقها.

تأخذ العزوني الجلالة، بلا قدرة على الخروج، من تداعي التفاصيل القديمة، إلا إذا أراد أحد المازحين، تذكيره بفريقه كثير الخيبات، فتنفتح شيئا فشيئا، طاقة التفاصُح لديه، ويتسلل مُزاحٌ متوتر، قد ينقلب في أية لحظة إلى جد.

بمرور الأيام، وعلى عكس المتوقع، ازدادت مساحة الاختلاف، بين المهمومين بالبيت، لدرجة اللجوء إلى المحاكم، حتى لاح في الأفق اتفاق ما، يقضى بضرورة العودة إلى التفاوض، كما أكد المجتمعون بمايكل، وهو في طريقه إلى القبور، على حتمية قيادته، للجلسة الحاسمة، متغاضياً عما وصله أخيرا، من تناول الولد مازن له بكلام ناقص، مهما بدا هذا الكلام جارحا، فالجمل لايكِل، والنخل يَفُوتُ في الريح.

يقين مايكل راسخ، بأحقيته في قيادة الجلسة، بل ومجيئه في طليعة المستفيدين من البيت، لا الوارثين فيه، ليس لأنه أكبر متعلمي العائلة، وحامل حِملها بالوراثه، لكن لأن والده ــ كما هو معلوم -، صاحبُ حقٍ قديم، في وجود بيت العم، المتمرغ منذ عقود، في غياهب الحاجَة والضنك، قبل سُكْناه التراب، فظل مع امرأته، يجوبان الغيطان نَفَرَين بأقل أجر، كي يطعما عدة أفواه، جاءت متتابعة، لاتتقن شيئا قدر إتقانها، لابتلاع للأخضر واليابس، في حياة كحياة الدواب، رغم اتساع المسكن، المقام قديما على

حافة الزراعة، قبل أن تطوقه البيوت، في غضون بضع سنوات تالية.

لم يُقْدِم والد مايكل، على إقامة هذا البيت، إلاهربا من استدعائه المتكرر، للإصلاح بين امرأة أخيه أم أيمن، وامرأة أخ آخر أكبر، عندما كان الأخوان بأولادهما، يقيمان معا بحجرتين متجاورتين، بالبيت الضيق القديم، الموروث عن أبيهم، الواقع وسط كتلة البلد الأصلية، قرب بيت جد مايكل لأمه، التي سكنته مع رجلها، وصار بيتا لمايكل وأخواته لاحقا.

ولم يتنفس الخلق نسيم الراحة، من تصادم امرأتيّ العمّين، اللتين لديهما قنابل موقوتة، من الشجار والشر، إلابعد مآل البيت الموروث، للعم الأكبر وأسرته، بعد مفاوضات عسيرة، رفضت المرأتان خلالها مغادرته، حتى اضطرت أم أيمن، للرحيل إلى البيت الجديد، بحوائطه لبنية الطوب، المعروشة بعفش الغيطان، لكن الحظ كفل له، مع اتساع المساحة، إطلالة ثلاثية الجهات، صارت شوراعا ثلاثة، ضاعفت من قيمته المادية، سيما بعد إعادة بنائه، واستبدال تعريشة العَفْش، بسقف خرساني، مَوَّلَه الابن الأكبر - والد مازن -، الذي سافر إلى الخليج، ثم عاد معلولا علة الموت.

ونساء عائلة أم أيمن مشهورات، بمهارات الشجار واختلاق الحروب، كعادة موروثة عن كبارهن، حافظت عليها وباتت إحدى رائداتها.

تجوب الغيطان سَرِّيحَةً بالأجر، منفردة أوبصحبة رَجُلها - قبل رحيلهما -، وعلى أيَّة هيئة، كبر لها بنتان وتزوجتا، وأربعة من الصبية، تتابعت عليهم زيجات على قدر الحال، تخيَّرْت هي الأكبر البكري، والأصغر آخر العنقود، ليظلا معها بالبيت، لقاء مزاملة امرأتيهما لها، في ارتياد الغيطان، ليزداد الدخل وتعتدل الأحوال،

فيما استماتت لطرد الأوسطين (أيمن ومحمد)؛ لرفض امرأتيهما مزاملتها، ولردهما عليها الكلام عند الشجار، هذا رغم اعتياد الناس، على مناداتها بأم أيمن، ابنها الثاني وأحد المطرودَين، لكثرة سفر البِكْرِيّ – والد مازن -، الذي بدا وكأنه ليس موجودا.

لكن الرياح لاتأتي دوما، على هوَى الرُّبَّان؛ حيث فقد البيت هذا البكري، تاركا أرملة شرشوحة عوراء، بخلقة دميمة ولسان كالمَبْرَد، مع أربعة من الذرية، موزعة على الجنسين، امتلك أكبرهم خَنَفا ظاهرا، وتهتهة عجماء عند الكلام، وقامةَ أمه القصيرة، فيما جاء أخوه مازن، وارثا عن جده، عود ''كونتا كينتي'' المستقيم، وسُمرة سِحنته، دون أن يأخذ عنه، طيبة لسانه، واستسلامه لله أولاً، ثم لأم أيمن ثانيا، التي أخذ الحفيد عنها فنون التسلُّط، مع خليط من وقاحة أمه، كما استجد عليه أخيراً، التشبُّه بشقيق امرأته المنتقبة؛ في تقصير الثياب، وإطالة الشعر الفاحم، غير عابيء بتَوَافُق الشكل مع المضمون.

لم تكد أم أيمن تفيق، من صدمة فقد الأول البكري، حتى فاجأتها المنية بخطف أخر العنقود، مُخَلِّفا وراءه أرملة ثانية مُعْدَمة، وحفنة أخرى من الصغار. فصارت لا تترك جنازةً، أومناسبةً كئيبة، إلاونصَبَتْ نَصْبَتها على ميِّتَيها، من ندب وصُوات ونحيب، وبات الخلق يتندرون رغم الفجيعة، بلعنتها التي حلَّتْ عليهما، بل تناكَتَ البعض، مطالبين ابنيها المطرودَين، أن يحمدا الله، لأنها لم تُبْقِ عليهما بالبيت، وإلاَّ حَلَّتْ عليهما اللعنة، ولحقا بأخويهما عند الرَفيق الأعلى.

ازداد دأب الولد مازن، على إثارة الزوابع، من أجل تقسيم البيت، في حياة جَدَّيْه، بينه كممثل لأمه وأشقائه، وبين أرملة عمه

حامد وصغارها، مهددا بارتكاب جريمة، لم يستقر على نوعها بعد، أو أحرقَ نفسه بمكان عام، ولولا تحذير خميس والخطيب له لفعلها؛ فقتل النفس حرمها الله، والخروج على أولي الأمر لايجوز، وكأنَّ ''محمد البوعزيزي'' التونسي، اطَّلَع على فكرةِ الولد، قبل أن ينفذها بعد ذلك، لتجعل منه مواقع التواصل، بطلا شعبيا وأيقونة ثورية.

على دار مايكل، جرت خطوات مازن، موقنا أن صاحب الدار الأكثر ثقة، لدى جده وعميه الباقيين، وعمتيه المتزوجتين، كما ترددت خطواته أيضاً، على ابن خالة مايكل، معلم الكيمياء بالثانوي الملتحي، لاستدرار انحيازه، مع انحياز متبوعه خميس، حال تواجدهم بجلسات البيت التالية.

وأمام فشل محاولات الولد، للتقسيم في حياة الجدين، انبرى مطالبا ببناء شقة فوق السطوح، واثبات ذلك بورقة يحتفظ بها.

لم يجد مايكل في مطلبه مانعا، على أن تكون الورقة، مجرد إثبات حال، لاإثبات ملكية، بل وتولَّى هو دعمها، بخاتم وبصمة الجد، وشهادة ابنيه وابنتيه، رغم رفضهم المبدئي، على أن يتم تقسيم البيت نفسه، بعد اتفاق الجميع، وإلاصارت شهادة على جور.

ثم ومن باب استئناس الولد، همس محذرا إياه، أن يظلم أحدا في أرضه – باعتبار البيت أرضا مبنية -، ولو شبر واحد، ثم حكي له قصة ''أَرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ''، التي ادَّعَتْ عَلَى ''سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ''- وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة -، أَخْذه بعض أَرْضِهَا، شاكية إياه إِلَى ''مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ''. فَقَالَ سَعِيدٌ -: كيف آخُذُ بعض أَرْضِهَا، بَعْدَما سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ: ''مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنْ

الأَرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ''- وهو حديث أخرجه البخاري-، وكيف أن ''سَعِيدُ بْن زَيْدٍ''، قال: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً؛ فَعَمِّ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا.

قال بعض الرواة:

فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَما هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا، إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ.

بدت على وجه مازن، ملامح التأثر بالقصة، وهو يتحسس لحيته مُطْرِقا، مما شجع مايكل، على تكرار تحذيره، من التورط في أكل حق عميه وعمتيه، لأن ذلك سيقوده حتما، إلى أكْلِ حق شقيقتيه وشقيقه المتهته، وسيسن لذريته سُنَّةً، يظل يحصد عاقبتها حيا وميتا.

كانت لزريبة البيت، تعريشة تصلح لإيواء البهائم، وحجرة تقيم بها أسرة حامد، أصغر أبناء العم - قبل وفاته طبعا، وقبل إبقاء أمه على ولدين، وطرد الولدين الآخرين -، تسبقها أربع حجرات؛ بالأولى أقام العم وامرأته، حتى أخر أيامهما، فيما احتل ثانيتها، الابن الأكبر السلاب، ثم زوجته وأولاده بعد رحيله، واحتل كل من أيمن ومحمد وامرأتيهما، الحجرتين التاليتين، قبل دخولهم في فواصل من بذاءات، ومعارك كلامية مع الأم، فشلتْ معها كل استدعاءات مايكل، وريث والده في الإصلاح، رغم محاولاته المستميتة، ومساهماتة المادية أحياناً.

مندهش مايكل تماما، من استمرار عمه، في الهدوء وعدم التفاعل، مع ما يدور في البيت، مكتفيا بالصمت والابتسامة المحايدة، التي تتوسط وجه ''كونتا كنتي'' الدائري الأسمر، الذي يرمي في الشبه أيضا، على الوجوه القديمة، في مجموعة لوحات

وجوه الفيوم الأثرية، التي يعرف مايكل، أنها عبارة عن بورتريهات مرسومة، للمصريين القدماء، تعود إلى العصر الروماني، كانت ترسم لهم قبل وفاتهم، لِتُوضَع مع رفاتِهم، حتى يمكن للروح، التعرف على أصحابها وقت البعث، حسب معتقدات المصريين القدماء، كما يعرف مايكل أيضا، أن فنانين مصريين، رسموا هذه الوجوه، مستخدمين ألوانا من تقنيات قديمة، كالألوان الترابية والأكاسيد، وزلال البيض والشمع.

ذكَّرَتُه فكرةُ الاعتقاد، بأن الروح سوف تتعرف على صاحبها، من خلال البورتريه الخاص بها يوم البعث، بفكرة وصية بعض كبار السن بالقرية، بأن تعلق لهم لمبات كهربائية، داخل قبورهم لتبديد الظَّلْمة، لكن الفتاوى أقرَّتْ، بالامتناع عن ذلك تماما.

وحتى عندما أتت في النهاية، واقعة طرد الولدين المعروفة، لم يحرك العم ساكنا، بغض النظر عن زعم البعض، بأن الطرد جاء في صالحهما، إذ لم يجدا أمامهما، إلاالتعجيل بالسفر لبضع سنوات، تاركَين أسرتيهما لَدَى أصهارهما، قبل أن يعودا مَجْبُورَيّ الخاطر، ويقيمان هذين البيتين الجديدين، لم يتعمدا أن يأتيا متباعدتين.

ولا تفوت الإشارة هنا، إلى استكانة أمرأة العم، وحرصها على شيء من الصمت، في حضرة مايكل، لايُعرف بالضبط، إن كان هذا تقديرا شخصيا له، أم عرفانا بجميل سابق لوالده.

يسلِّم الكثيرون بأن الجد الأكبر، لم يترك لأولاده الثلاثة - عَمَّيّ مايكل ووالده -، سوى البيت القديم، الذي آلَ للعم الكبير، بعد انتقال والد أيمن، للبيت محل النزاع، فيما أقام والد مايكل، بدار جده لأمه – وهي ليست أم أخويه الآخرين -، التي كتبها لزوج ابنته، وصارت لمايكل وأخواته إرثا من بعده.

لكن أقوالا أخرى تناثرت، حول خطأ هذا التسليم، فالبيت القديم، لم يكن إلا جزءا، من تركة عريضة، لجد مايكل لأبيه، والد الرجال الثلاثة، وأن أخاً وحيداً للجد، سمح للثلاثة معا، بهذا البيت المحدود، ثم استولى على بقية التركة، من أطيان ودواوير مليئة بالدواب، وأراض زراعية، لايزال أبناؤه وأحفاده، ينعمون بنتاجها إلى اليوم.

ولو استثنينا والد مايكل، وهو أصغر الثلاثة، فلا أحد يدري أية بلاهة لأخويه الكبيرين، جعلتهما يَقْبَلان فعل عمهم هذا، في استسلام مقيت ومُخِل، وهو نفس موقفهما لاحقا، من شجار امرأتيهما العارم والفاضح، قبل استقلال كل منهما، بمسكن منفرد.

لتأكل عجلةُ السنين أعمار الجدود، ويُبَكِّر والدُ مايكل بالرحيل، ويلحق أخوه ساكن البيت القديم به. ثم يأتي الختام بشبيه ''كونتاكنتي''، ومن بعده امرأته السليطة، تاركَين وراءهما، هذا التنازع المُسْتَعِر على بيتهما، لِشِلّةٍ من المطالبين، بات أيمن أحدهم، بعد رَمْيِهِ أيضا بكلام بذيء، من مازن ابن أخيه.

لتنطرح عدة أسئلة، على هيئة:

هل يتجاوز أيمن، عن بذاءات ابن أخيه، ويعود ليترك نصيبه في البيت؟

وإذا جاز هذا، فهل يتجاوز مايكل مثله، خصوصا وقد جمع الولد معه، ابن خالته معلم الثانوي، بعد أن كان طامعا، في انحيازه إلى جانب ساكني البيت؟

ومثل هذه الأسئلة، تعيد الموضوع إلى نقطة حتمية؛ تبدأ منذ توافَقَ خروج مايكل المتأخر، لزيارة راحلي العائلة، مع وقفة الرجال على الطريق، وما حوت تلك الوقفة من حوارات؛ حول

عُقدة البيت وصعوبة حلها، إلاَّ بتواجد مايكل، وغض الطرف عن أي تجاوز حدث.

يومها سأل أيمن دهشا، عن سبب هذا التجاوز.

فعاجله سعد: ليتك تسأل أولا، عن أساس القضية، قبل السؤال عن التجاوز.

رد العزوني متقمصا دور الحكيم:

أي نزاع يمكن تجاوزه، بالصبر والتفاهم، والتسليم بإرادة الله.

وقبل أن ينفتح فم أيمن بكلمة، قال مايكل بأن أساس القضية، هو خرج أصحاب الحق مَن البيت، وبقاء مَن لاحَقّ لهم به، وليت مَن لاحق لهم راضين، أوحتى خاملين، ينتظرون الفعل ليأتوا بالرد عليه، لكن أسلحتهم مسنونة، تأهبا لرمي هذا وتسفيه ذاك.

وكانت أنامل مازن، قد داعبت لحيته قائلا، وهو يتسلم ورقة شقة السطوح من مايكل:

أنت الوحيد الفهامة، القادر على إقناع الكل، بترك البيت لمن فيه، وكلهم كما ترى؛ أرامل ويتامى.

ثم ململ بدنَه فوق مقعده، مُكملا:

سيبك من أيمن وسيرته، فهو خيال مآتة، لايحل ولايربط.

رد مايكل منزعجا:

كيف تغتاب عمك الشقيق هكذا، وتتهمه هذه التهم؟ إذا اتهمته اليوم، فسوف تتهمني غدا.

غادرت أنامل الولد لحيته، وهو يصيح متصنعا الحماس:

حاشا لله، أنت شئ وهو...

قاطعه مايكل، برفع كفّه بينهما، مشيرا له بعدم مواصلة الكلام.

وإن هي إلا أيام، حتى صدق توقّعه؛ فلم يكتف مازن باغتيابه

وحده، بل ضم إليه ابن خالته الملتحي، واصفا لحيته بالعِيرة، زاعما أكله إرث أخته، من والدهما حديث الوفاة، هذا لأن ابن الخالة، أدلى بشهادة حق فيما يخص تقسيم البيت، قضمه مازن لمن يهاجمهم، في محاولة للقضاء على إمكانية انضمامه، إلى أية جلسات تالية، بحكم سابق خبرته المعروفة، في وقائع مماثلة، استوجبت أحيانا مساهماته المادية، آخرها بناء مظلة بين الكوبريين، تجمع مستذكري دروسهم عصرا، قبل انطلاقهم إلى الدروب المُنسابة بين الغيطان، كما دأب على مراجعة مادته معهم بالمجان.

كما أن مازن لم يتورَّع، عن اتهامه بالجهل، وعدم إتقان عمله، كمعلم للكيمياء بالمدرسة الثانوية، لمجرد ارتباط اسمه بواقعة غريبة؛ سقطت فيها من يده، عبوةٌ لمادة الصوديوم بمعمل المدرسة، فأحدثتْ دَوِيًّا هائلا، ظنه المعلمون والطلاب والجيران، انفجارا لعبوة ناسفة، وتجمع الكثيرون وفرَّ آخرون، وتم ندبه إلى الإدارة، لحين الانتهاء من التحقيقات، وأبدعتْ الأذهانُ قصصا ألصقوها به، حتى أثبتت التحقيقات، سقوط العبوة دون قصد، وأن المعمل كان خاليا من الطلاب، وأن المعلم مع أمين المعمل، كانا بصدد تنظيم روتيني، لعبوات المواد بالدواليب، لينتهي الأمر معه بالحفظ، وعودته لمدرسته الأصلية.

أما ما بدا غريبا، أن كُلا مِن المعلم وأمين المعمل، لم تكن لديهما خبرة كافية، للتعامل مع طبيعة الصوديوم، الذي يُحدث مثل هذا الدّوِيّ، عند أي اصطدام، ويمكن أن يشتعل، ولو وَضَعَته وسط الماء، لتتفجر قضيةٌ مختلفة تماما، تتعلق بالجهل وعدم التدريب، لمعلمي العلوم وأمناء المعامل، وكأن لسان الحال يقول:

ألايكفي الاختلاط المُخِل، لطلاب الثانوي بأطفال الابتدائي، دون

كفاية للفصول والمعامل، وسُبُل الحماية؟

وتعود للظهور مسألة مبني الإعدادية الثانوية، ووقائع صياناته عديمة الجدوى، قبل إزالته وماتبعها من وقائع، منها إلحاق طلابهما على الابتدائي، في انتظارٍ عقيم، لإحلال البناء محل الهدم.

-...

جاء اغتياب مازن، لمايكل وابن خالته، في حضرة عمتيه الوريثتين، اللتين أسرعتا بنقل الواقعة حرفيا، للمغتاب في حقيهما.

يومها ارتدى الولد، ثوب المانح المتعطف، مقترحا لكل واحدة منهما مبلغ ما، مقابل التنازل عن حقها، تتسلمه بعد أربع سنوات، قال: أنا عليّ أقساط بالآلاف، لتجار الحديد والأسمنت و...

- قاطعته إحداهما:

أية آلاف يابني؟

- أشار نحو شقة السطوح:

البركة في هذه المخروبة؟

- همَّتْ كلتاهما تأهُّبا للانصراف.

- استوقفهما قائلا:

يعني أترك ما فعله خالي مع أمي، ليكرره أعمامي معي؟

- قالتا معا:

الموضوع هنا مختلف يا مازن.

والعمتان تعرفان سَلَفَاً، ما تعاطته القريةُ كلها، عن خال مازن المتعلم، والد الأولاد الثلاثة، الذي أعطى أخته أم مازن جاموسة مريضة، لقاء إرثها في والدها، وسرعان ما نفقت الجاموسة، دون انتفاع إلا بجِلدها.

وما فعله الخال مع أخته، أهْوَن مما فعله، مع أخيه الأُمِّيّ، والد البنات الثلاث، حيث بَصَّمَه على بيع أرضه، مُفْهِمَا إياه أن البصمة للإيجار لاالبيع، قال:
أولادي أولى بالأرض من بناته.
ليموت الخال في حادث، وهو بصدد الذهاب إلى محام بدمياط، يرفع له قضية صحة تعاقد، ويكتشف أولاده الحيلة، التي كان ممكنا إخفاؤها، لبعد موت العم الأمّيّ، ليستولوا على أرضه، لكنهم توجهوا إليه بالأوراق، طالبين منه مسامحة والدهم، بعد أن صار بين يدي الله، لتنتهي الحكاية، على هيئة حكايات الربابة ومُنْشِدي الموالد، بزواجهم من بنات عمهم الثلاث، دون أن تعود جاموسة أم مازن للحياة، أويعيد أحد الحديث، حول إرثها القديم.
قالت إحدى العمتين، راسمة ابتسامة ساخرة:
إياك أن تتكرر معك، حكاية خالك مع أمك يامازن.
سحبت كلتاهما يد الأخرى، قاصدتين ابن عمهما مايكل.
أطلق الولد نحوهما تنهيدةَ لامبالاة، خاتما:
على أية حال، هذا آخر ماعندي؛ مبلغ أسدده بعد أربع سنوات، وفي القبول كل الخير، وما على الرافض إلا، ضرب رأسه بالأسفلت.
امتدت يدا مايكل مُرَبِّتَةً ظهريهما، وهما تشيحان بعيدا، لإخفاء منابع الدمع، مُقْسِما أنهما لن تغادرا بيته، قبل مشاركته طعام الغذاء، مضيفا أنه من أجلهما، يمكن نسيان التجاوز في حقه، شريطة عدم تحميله، عبء الفصل وحده، في أمر البيت، وعدم تحرير أية أوراق، تضيع معها الحقوق، فالسنون سرقته ورحلت ابنته، لكن لاشيء يُعْجز الخالق، وربما رزقه بعد الصبر، بابن أوأكثر، ولن يغرس لنفسه أولهم، شجرة، توَرِّث ثمار الظلم.

وعليه فهناك طريقتان للتسوية؛ تعتمد الأولى على تراضي الجميع، أياً جاءت المبالغ المدفوعة، أوالوعود المتفق عليها، أما الطريقة الثانية فتعتمد؛ على تحديد حق كل وريث، أوتقديره مادياً، قبل تسجيله في عقد مشهود عليه، وفي كلتا الطريقتين، يلزم حضور شيخ ثقة، يتحمل شأن الفتوى، مع مختص بالتقسيم والتسعير، ومحامٍ لصياغة العقود.

لم يرض السكان، بأيٍّ من الطريقتين، على عكس البنتين، وأخويهما الباقيين، اللذين تفاجأ الجميع، بإقرارهما الشفوي، بالتنازل عن حقيهما، إلا أن هذا لم يثلج صدر مازن، أويخفف من غطرسته، المُشَبَّعة بطباع أمه وجدته، غير مراعٍ لتقدم السن بأيمن، واستمرار عمله أَجَرِيا، يكسب قوته يوماً بيوم، بعد أن نَحَلَ وبَرَه، بناءُ بيته الخاص، وتزويجه لبنت من ثلاث، وولدين يقيمان معه، يقود أحدهما عربتهم منزوعة الأرقام قليلة الدخل، فيما بقيت بنتان مخطوبتان، يَحْرِمْهما هذا التنازلُ، من فرصة سانحة لتجهيزهما، والتعجيل بزواجهما، وربما بقى له مايساعده، على دفع عَجَلة الحياة.

ودون مقدمات، فاجأ مازن الجميع، قائلا:

التنازل الشفوي لأيمن لاقيمة له، لأنه لن يطال شيئا، ولوكانت لديه الشجاعة، يقترب من زريبة البيت.

ثم أعاد تهديده حالِفَاً، بأن الدائرة إذا دارت عليه، سوف يشجع أمه، على القفز من أعلى السطوح، أوتنفيذ ما انتواه سابقا، بإشعال النار في نفسه، أمام المسجد بعد صلاة الجمعة، أو في السوق.

ارتفعت الحرارة برأس أيمن، مستعظما نطق اسمه، مجردا من

كلمة عمي، قال:
لن أتنازل لهذا الكلب عن حقي، أولادي أَوْلَى به، ولو كان رجلا بجد، خَلِّيه يوَلَّع في نفسه هو وأمه.
ثم عمد إلى رفع قضية، سرعان ما قلدته أختاه، برفع اثنتين.

اهتزت الأرض، تحت أقدام سكان البيت، سارع مازن بعرض المبلغ السابق على عمتيه، مع وعد بتسليمهما إياه، في خلال شهر، لابعد سنوات أربع.
بادرتْ عمتاه بالرفض، تضامنا مع أخيهما، المُهان في نظريهما، من (عيِّل) في سِن أبنائه.
جرتْ مفاوضاتٌ مكوكية، لسعد حسني والعزوني، والسفير أحيانا.
طرح مازن عرضا أخيرا، بدفع المبلغ المُقترح لعمتيه في الحال، مع تقسيط مبلغ مماثل، يُسدد خلال عام.
أسَرَّ العزوني لمايكل، بتفاصيل هذا العرض، ورغم ما اقترفه مازن تجاهه، سارعَ بطرح العرض، على صاحبتي الشأن.
بدت على البنتين أمارات القبول، شريطة التنفيذ قبل سحب شكواهما، وبعد إرضاء كل مَن طالهم، لسان ابن أخيهما بالعيب، وفي مقدمتهم عمه أيمن.
قال أيمن: أخرجوني من الموضوع.
ثم أفصح مجددا، عن التمسك بنصيبه، راضيا بما سيأتي به الحكم، في قضيته المرفوعة، مهددا بإخفاء عقد البيت، المحتفظ به منذ وفاة والده.

جرتْ أقدام العزوني وسعد على داره، مذكرينه برغبته السابقة

في التنازل، مرددين على أذنيه، مآثر العافين عن الناس، والبَركة التى تحل على المتسامحين، وأن الولد ابننا وإن أخطأ، وكل مَن حولِه، مِن لحمنا ودمنا...، ولم يتركاه إلاوسِحْنته رائقة، وصَمْتُ الرِّضا مستحوذٌ عليه.

راح الكلام ودار، ليعود مُحَمَّلا باستعداد ساكني البيت، لِلَحْس التراب وتقبيل الأيدي، كي تنجح الجلسة الأخيرة، التي يقودها مايكل، حسب وعده أثناء لقاء الطريق العارض، قبل أن يواصل سَيرَه، متوجها نحو القبور، بقلب موحش، وعينين ترصدان الأفق الوسيع، الذي يشعل الرأس بخواطر عدة، حول تداخلات الحضور والغياب، يصعب على الكتب احتواؤها، فيما بدأت حُمْرَةُ الشفق، في إرسال طلائع شباكها، المتكاسلة لاتزال، عن طمس خيوط الشمس.

العَزَاء

عَبْرَ مُكبرات الصوت، ينادي المنادي بالمسجد، أوعَبْرَ ميكروفون آل عيسى:
البقاء والدوام لله، ''مَن عَزَّى مصابًا فله مثل أجره''.
ثم يذكر اسم المتوفى، ووقت تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير، فيتدافع الحريصون على صلاة الجنازة، فيما يبقى الكثيرون بالمقاهي الأربعة، أوعلى جانبي الكوبري القديم، وعند مدخل طريق القبور، انتظارا لقدوم النعش، فيذوبوا بين المشيعين.
يعيد المنادي الاسم ثانية، مقترنا بأسماء أقاربه المهمين، طالبا الدعاء له، ومسامحته على أية مظلمة شخصية، والمطالبة بأي دين عليه، من ابنه أوأخيه أوالأقرب فالأقرب، فأعمال الميت يتم تعليقها، إذا لم يتكفل أحد بالسداد، مضيفا كيفية العزاء؛ هل سيُقام لاحقا، أم سيبقى قاصرا على تشييع الجنازة، حيث استجد ذلك، بعد فتاوى خميس وتابعيه، وأمثالهم، اللذين اقتصرت جنائزهم، على مراسم التشييع والدفن، وقلدهم البعض مكتفين، باصطفاف الأقارب في مواجهة القبور، عند الحافة اليُمنى للطريق، لمصافحة المُشيعين قبل انصرافهم، بدلاً من المآتم والسرادقات، التي يرونها مُحَرَّمة، يتعذب المتوفى بسببها.
لم يأتِ هذا الاقتصار، على هوى العزوني، الراغب في إرضاء ابنه، موظف الجمارك، المتزوج من عائلة عيسى، أصحاب المخزن المعروف، الكائن بمفترق الطرق، قبل وابور الطحين

القديم، المعتمدة في ارتزاقها، على مَدّ أي تجَمُّع للأحزان أوالأفراح، بالمقاعد وماكينات النور، بأسلاكها مدججة اللمبات، ومكبراتٍ للصوت وكاسيت، وشرائط القرآن أوالغناء، حسب المناسبة.

وهي مهنة يشاع عنها، الكثيرُ من الحكايا القديمة، أشهرها أن جدهم عيسى الأول، قتل جنية بحرية، حيث كان يعمل صيادا، وذات تناوله للغذاء، حامت حوله قطة سوداء، ماءت طالبة إحدى السمكات، فألقى إليها بواحدة، التهمتها سريعا ثم ماءت، فألقى إليها بأخرى، التهمتها سريعا ثم ماءت، فأمسك عن مدها بالثالثة، لكنها لم تصبر، وهاجمته بمهارة، خاطفةً كُبرى سمكاته، فامتدت يده بمقشة البلح، ضاربة أم رأسها، وما هي إلا لحظات، حتى تمددت نافقة.

وسط نوم ليلته القلق، تفاجأ بجنديين هائلين مسلحين، فحملاه حملا كريشة، عابرَين به خلال جدران البيوت، حتى وصلوا إلى سفينة كقرص الشمس، عليها فراشة تشبه القصر المنيف، سرعان ما غاصت بهم تحت الماء، ليجد نفسه داخلا بينهما، إلى مجلس مهيب، وسط فراشة أخرى، مُزدانة باللآليء والأصداف، يتصدر مجلسها ملك عظيم الهيبة، ماسيّ القناع والتاج، يصطف خلفه عدد من النساء، اللائي يعجزُ أفصحُ لسانٍ، عن وصف جمالهن، يحملن على أذرعهن المرمرية، شابَّةً مُمَدَّدة بديعة بلا حراك، فيما تنسال دموعهن زبرجدا وياقوتا وعقيقا، خلفهن تبرز رأس عملاق أسود لامع البشرة، وعلى جانبي المجلس، صفان من الرعية، بثياب براقة الألوان، لدرجة لم تقو عينا عيسى، على مواجهة شعاعها، انتقل من بينهم اثنان، احتل أحدهما يمين الملك، فيما احتل الآخر يساره، بينما أجلسه الجنديان على مقعد وحيد في

مواجهة الملك وجناحيه، صدرت عن الرعية زوماتٌ مُزلزلة، كاد قلبه أن ينفلت من بين ضلوعه، لولا إشارة الملك لهم، فلاذوا بصمت تام.

نادى الأَسْوَدُ الواقف خلف الملك:

فُتحتْ الجلسة.

- سأل الملك دون تمهيد:

لماذا قتلت ابنتنا هذه يا عيسى؟

- ارتج كيان عيسى للسؤال، أجاب وكأنه نصف مُغَيَّب:

والله ما قتلت أحدا.

- وما رأيك في تلك النائمة خلف ظهري، فوق سواعد الفتيات.

- لا أعرفها حتى أقول رأيي فيها.

- ألم تقتلها بمقشة البلح على الغذاء؟

- ما قتلت إلاقطة سوداء.

- كيف تقتل قطة سوداء بلا ذنب.

- لقد ماءت أولا فمنحتها سمكة، وماءت ثانيا فمنحتها أخرى، فماءت ثالثا...، (أكمل عيسى الحكاية)، ثم قال:

لكنها قطة، والله العظيم قطة، قطة سوداء...، وراح في تَهْتَهَةٍ مُبهمة، انتهت بنوبة بكاء عاتية، غزيرة النحيب والدموع.

- نظر الملك نحو جناحه الأيمن، ثم نحو جناحه الأيسر، قال:

أنت براءة يا عيسى.

وعليكم آل الجن بالذهاب، كي تزفوا العروس.

لحظات ولم يعد بالمكان، سوى المتحدث وجناحيه، وعيسى وجنديه.

- نادى الملك:

عيسى أيها الآدميُّ الكريم.

لك علينا سؤال، وعلى ضوء إجابتك، لك منا نصيحة.
أما السؤال فهو: ما أكثر شيء أعجبك هنا.
- أخذ عيسى التَّلَفُّتُ حوله، وهو نصف نائم لايزال، فلم يجد سوى، فراشة المجلس وكراسيه، قال بتردد:
هذه الفراشة بكراسيها.
- انتفخت أوداجُ الملك، قبل أن يقهقه كالرعد المكتوم، ثم أكمل:
أما النصيحة فهي:
عليك بالفراشة ياعيسى، فلك ولذريتك فيها أرزاق.
عليك بها وإلا صارت هديتُك قِشورا مُعْدَمة.
عليك...
وانتفض منصرفا، وهو يزعق:
امنحوه الهدية، وأعيدوه إلى سريرة في البرّية.

حمل الجنديان جرابين منتفخين، ثم استدارا خارجين من الفراشة، فإذا بعيسى في السفينة شبيهة الغواصة، وبين يديه جِرَابَيّ هديته، ينتفخ أحدهما بقشر البصل، وينتفخ الآخر بقشر الثوم، وما إن حمله الجنديان، مخترقَين الجدران، ليعيداه إلى سريره، حتى أفاق، ليجد قشر البصل ذهبا، وقشر الثوم فضة، وفي أذنيه لايزال الرنين يرن:
عليك بالفراشة يا عيسى...

فامتهن فراشة السرادقات، مورِّثا إياها إلى ذريته من بعده. ولكل مناسبة فراشتها، حيث ظلت الغالبية - خاصة القدامى-، متمسكة بعزاء منفصل بعد الجنازة، يأتي على مستويات مختلفة؛

منها ما يكتفي، بكنبات متراصة أمام الدار، وعدد من مقاعد آل عيسى المُستَأجَرة، مع الاستماع لشرائط رفعت والمنشاوي وعبد الباسط، و...

أوالانتقال إلى مركز الشباب، لقاء أجر قليل، مع استعمال نفس الشرائط، أواستبدالها بقاريء محلي، يسكن العزبة المحدودة، جارا لأخت أيمن الكبرى، حيث يتم الاتصال بزوجها، لإتمام الاتفاق معه، يقضي الليلة بعدة جنيهات، ثم يتناول عشاءه، وينصرف شاكرا حامدا.

أوالارتقاء قليلا، فيقام العزاء بالمضيفة، التي تمتليء تارة، بالزغاريد والطبول، وتارة تبدو موشومة بالحزن، بعزاءات أنصاف القادرين، مع استجلاب قاريء العزبة ذاته، ليسند على قاريء أكثر شهرة، قادم من عاصمة المحافظة، يتقاضى مبلغا وَسَطا.

أما القادرون، فلا مفر أمامهم، من سرادق فخم، يعلو أثاثه على إمكانات آل عيسى، بمكبرات حديثة تُردد الصوت، وماكينات إنارة عفيَّة، تحسُّبا لانقطاع الكهرباء، واستجلاب قاريء إذاعي، ممن يتقاضون الآلاف، مع الالتزام بعادات، يراها أقاربُ الخطيب الأزهريون، ليست من العزاء في شيء؛ كتقديم الشاي والقهوة السادة، وتوزيع السجائر، بُغية اكتمال مفخرة أهل الليلة، وارتفاع قاماتهم، وهم يصطفون بمدخل السرادق، أويتمشون بين الصفوف، منتفخي الصدور، مُعْوَجِّي الطواقي والشيلان، فيما يحتل أصحابُ المناصب بالعائلة، مرتدوا البِذَّات والبدل الكاملة، المقاعدَ التالية للمصطفين وقوفا، في استقبال أوتوديع المواسين، وحجز الأغراب منهم، لتناول العشاء بعد الختام.

ومثل هؤلاء غالبا، يستقدمون لأفراحهم ومناسباتهم، سَيِّيتا

معروفا أوراقصة شهيرة، تزيد أوداجَهم انتفاخا، وتُعْلِي صدورَهم كِبْرا.

وبغض النظر عما يُحلله المُحلّون، أويُحَرَّمه المحرمون، داوَمَ مايكل منذ صباه، على ارتياد العزاءات الفخيمة، لامِن أجل المواساة، وجبر الخاطر فحسب، بل للجلوس في مواجهة كبار القراء، راصدا تعبيرات وجوههم وأفواههم، وكفوفهم الصاعدة حول آذانهم، صانعة حركات وإشارات، برع في تقليدها حركيا، دون فهم دلالاتها، مُسَلِّما قلبه للاستمتاع الغامض، عامدا بعد ذلك، إلى تأمل المعاني.

فيما برعت أذنه، في التفريق بين أشهر التلاوات، بفضل دوام استماعه، إلى إذاعة القرآن الكريم، قبل أن يطرأ عليه التطور، باقتناء كاسيت خاص، ووقوعه على تسجيلات عديدة، لحفلات قرآنية نادره، ثم امتلاكه لنُسَخ مختلفة، من الترتيل والتلاوة، ناهيك عما استجد مع الكمبيوتر، وتبادل السيديهات والفلاشات، وشيوع المواقع الإلكترونية، التي أدْخَلَتْه أخيرا، في زُمرة المتفاعلين مع الشباب، في دعوتهم للتعبير عن آرائهم، في تظاهراتٍ سِلمية، ترفض وحشية الشرطة، والفقر وغياب العدالة.

فبات القصص القرآني أهم روافده، ليصبح مولعاً بالحكايات، ومن ثم الضلوع في كتابتها، منها ما تناول أجواء اختلاطه، بشيخ كُتَّاب القرية وأهل بيته، وقت تكوين اللبنة الأولى، في بناء حِفظه وتفسيره، لأجزاء من الذكر الحكيم، إلى جانب القراءة والكتابة بالشكل، وحفظ جدوليّ الضرب، صغيره قبل كبيره.

على طريق العودة من القبور، وفوق الجزء الترابي من الطريق، قُبالة أحد الشوارع، تخطت قدماه جثة مدهوسة لأحد الغربان، دارت برأسه أسئلةٌ، تبدو غير ذِى قيمة، حول ظروف

موت الطائر المسكين، فإلى جانب الأصوات الناعمة لأجنحة اليمام، وهى تتنقَّل بين الأغصان، منزعجة من زائر آخر النهار، ظلت الغربان – لاالعفاريت -، أنيسة زيارته المتأخرة، أصواتها الخشنة سائدة، وهي توفق أوضاعها، لاحتلال مواقعها فوق الأشجار، تمهيدا لقضاءِ طويل ليلِها، في انتظار الصبح البعيد، كي تعاود الانطلاق، باحثة عن قُوتِها، في واسع أرض الله. ربما جاء الدهسُ نفسُه، سببا لنفوق الطائر، وربما نفق لسبب آخر غامض.

وثمة سؤال عارض:

إذا لم يكن الدهس سببا للنفوق، فمن ألقى بجثته تلك، في مَرْمَى الداهسين؟

تنبه لخطورة هذه الأسئلة، فلو أمكن لأحد خارق، الاطلاع على دورانها برأسه، لاتهمه بالجنون.

يعلم تماماً مدى تشاؤم القرويين، من أصوات الغربان ولونها، فالسواد لديهم قرين الشؤم والهم، قبل أن يصير لباس المنتقبات، اللائي صرن يملأن الدور والحارات، سواء عن قناعة، أوتنفيذ أعمى لدعوة خميس ومؤيديه، ناهيك عن تشبيه البعض لتجمعاتهن، في الجنائز والمآتم بالغربان، بكل ماتحمل الكلمة لديهم، من تاريخ رمزي سيء، لايُعرف لماذا؟

هل لذلك علاقة بالغُرابين الأولَين، في قصة الأخوين قابيل وهابيل؟!

إن كان الأمر كذلك، فوجودهما بالقصة، جاء بقصد حميد، وهو تلقين الإنسان درساً عملياً، لعل هذا الدرس، هو السبب حتى الآن، في وجود القبور أساسا، التي لولاها ما تواترت زياراتها، على مر السنين، وحتى زيارته هذه، قبل المغرب بساعة زمن.

فقابيل عندما تورط في قتل أخيه، دار بجثته حائرا، عاجزا عن مواراتها، فسخَّر الله له الغرابين، ليقتل أحدهما الآخر، ثم يفحت بالأرض، ليدفن جثة المقتول، مخفيا إياها بالتراب، وعليه استقبل قابيل الدرس، ليوارِي جثة أخيه تحت الثَّرَى، بصرف النظر عن بناء قبور القرية، فوق سطح الأرض، وداخل أبنية تشبه الحجرات، بأقْبِيَةٍ داخلية مفروشة بالرمال، ذلك لقُرب المكان من مجرى النيل، وأنَّ أى فَحْتٍ يزيدُ عن نصف المتر، سَيُظْهِرُ على الفور بَلَلَ التربةِ، وأي عمق جديد، سيجعل الماء ناشعاً، وسرعان ما يظهر الطين، مما يؤدي إلى صعوبة الدفن، وسط الماء والطين، وعليه صدرتْ بالتأكيد فتاوَى سابقة، أجازَ أصحابُها بناءَ القبور المتجاورة، متنوعة الارتفاع والاتساع، واتخاذها مساكن أبدية للراحلين.

فوق أغصان الكافور العجوز، فقيرة الخُضرة، وبين البنايات المتباينة، تشتعل حشرجةُ الغِربان، وثمة خشخشة لأوراق الأشجار الجافة، الكاسية للشوارع الضيقة، ربما لحركة السحالي أوالثعابين، الزاحفة قرب جحورها.

وبدأت الضفاضع في رفع رِثْم النقيق، وبقايا أبو قردان متناثرة، تحتل جزءا من الأرض، تَظهر لمعةُ الماءِ في أنحائه، فيما تقوقع أكثره، فوق صفصافة ممدودة، وسط حقول البرسيم المزهرة، المتماوجة كبحر هاديء، بفعل تيار خفيف من هواء، إنها شجرةُ أبو قردان، كما يطلق عليها المارة، التي يهدهدها الهواءُ برفق، في منظرٍ لايصدقه، إلا من رآه مَرْأى العين، فكأن فُرَادَى الطائرِ ثُرَيَّاتٌ ناصعةٌ، مُعَلَّقَةٌ بأماكن أُعِدَّتْ لها، تستقبل ليلها الصامت، مُسَبِّحَة بحمد خالقها بامتنان، وماذا بعد هذا؟

فسجادة البرسيم اليانعة، من تحتها مَلأى، بكائناتٍ مِن خلق

الله، أُعِدَّتْ لتكون مائدةَ طعامها، قبل وبعد نومةٍ هنيئة فوق الصفصافة، دائمة الخُضرة صيفاً وشتاءً.

وَقَرَ داخلِ مايكل مع ذلك، أن حزنا دفينا يسكن صدور هذه الطيور، مُبَلَّلَةَ الرِّيشِ ناصعةَ البياض، إلا من اتساخ محدود للأطراف، تُرى مِن أين تأتي كل عام، وإلى أيَّةِ وِجْهَةٍ تروح، بعد مُدَّةٍ تقضيها هنا، كأنها القدَر المقدور؟

تُرى ماذا ودَّعَتْ هناك عند القدوم، وماذا تودع هنا عند الرحيل؟

إنه امتداد آلي، لأسئلة قد تبدو بسيطة لدى البعض، لكن علمها لم يصل، إلى يقين مايكل بعد، على بساطتها المزعومة.

الشمس تسعى لاتزال، لترفع خيوطها عن مَكَامِنِ الدنيا، واثقة من نجاح مسعاها بموعده المحدد، دون تقديم أوتأخير، كثقتها في العودة ثانية، مع مُسْتَهَلِّ حياةٍ آتية، بعد مَيْتَةٍ ليليةٍ للكون، فتَعُود خيوطها لتطال كلَّ شبرٍ، تَبُثُّه أملا أكيدا، ورونقا ربانيا، وكأنما يَلْهَجُ الكونُ داعيا، بدعاء الإمام علي:

''يا من إليك تضرعي ورجائي* وإليك أمرُ الخلقِ فى العلياء.

يَسِّر بفضلك كلَّ أمرٍ مُعْسِرٍ* وامحُ الذنوب برحمة ورضاء''

...

وَدَّعَ مايكلُ وراءه الراحلين راضيا، بمجرد اقترابه من تقاطع الطريق مع الأسفلت، لمح العزوني وأيمن، يتوسطهما الولد مازن، متربعِين فوق رصيف الكوبري، وأمامهم حزمةٌ من القصب، يجتهدون في مَصِّ أواخر أعوادها، قبل اللحاق بجماعة المغرب، من بعيد ورغم جلوسه بينهما، بدت إشارات مازن حادة.

بالمسجد تَمَلَّكَه شعورٌ أكيد، بأن عينيّ أيمن مسلطتان عليه، حتى وهم بالصلاة، حيث جاء اصطفافه لصق العزوني، خلف

ظهره تماما، عندما بات خارج المسجد، قادته قدماه لاإراديا، في اتجاه البيت، أوقفه أيمن صائحا:
الولد مازن غاضب، من بقاء البيت بلاتقسيم.
- وأين هو؟
- ذهب ليؤم المصلين، بالزاوية القريبة من شارعهم.
- ربنا يهديه.
- آمين...، ألا بالحق، لاتنس العزاء يا ابن العم!
إنه عزاء امرأة المرحوم حافظ غريب، المدفونة عقب صلاة الجمعة، دون مشاركته في جنازتها، والتي لم يتذكرها، طيلة زيارته للقبور، رغم تنبيه أيمن، ورغم اصطدام أنفه مرتين، برائحة الميتين، التي تُصَبُّ على أحدث المتوفين، فالرائحة إذن، لمن وجب العزاء فيها، جيث كان زوجها، صديقا حميما لوالده الراحل، الذي ظل يحتفظ لهم، بقدر من الإعزاز والتقدير، حتى آخر أيام حياته.
رد وهو يستدير عائدا:
الله يرحمها يا أيمن، طبعا رايح رايح.
- طيب الله يرحم والديك، لاتنس موضوع البيت.
- حاضر، حاضر يا أيمن.
عادت ذاكرته، إلى ما قبل المغرب، مسترجعة بقية مشاهد عودته، من زيارة راحليه، لم تزل شجرة أبو قردان، ماثلة بداخله وسط الغيطان، المزدانة بسجادة البرسيم.
على يمين العائد، وقبل الوصول إلى الأسفلت، توجد عربات كارو مركونة، وحمير معلوفة مع أغنام، وبنك خشبي عملاق، لأقدم معلمي طلاء الموبليا (الأستورجية)، أمام ورشته الكائنة، بدور بيته الأرضي، لم يكن أمام الورشة المغلقة، أيٌّ من العمال،

فالجُمعة نُعد عطلتها الأسبوعية، كَلَفْتَةٍ إنسانيةٍ من صاحبها، كي تتوافق مع عطلة الموظفين، لأن معظمم العاملين معه، خريجوا مدارس وجامعات، لم يتمكنوا من الالتحاق، بالوظائف الحكومية المناسبة، أوحتى غير الحكومية، فمَرَّنوا أنفسَهم على الالتفاف جنبا إلى جنب، حول بنك (الأستورجية)، مع عديمي المؤهلات، غير مهتمين بتقدير الناس لحظوظهم، إن كانت أفضل أم أسوأ، من حظوظ رفاقهم، اللذين داروا في فلك خميس والخطيب، وباتوا عجينة لينه في أيديهما، أواتخذوا من العِتر مثلا يُحتَذى، وكذلك اللذين باتوا، زبائن دائمين للمقاهي العديدة، ولأرصفة الكباري والمساجد.

على يسار العائدين، وعلى مبعدة من الأسفلت، توجد صبَّة خرسانية، تغطي جزءا كبيرا من قناة الري، إلى جوارها شُيِّدَتْ حديثا بيوتٌ عِدة، تحولت حجراتها المطلة على الطريق، إلى وِرَشٍ ومحلات،
منها مكتبة للأدوات المدرسية، تخدم طلاب الابتدائية الأولى، والإعدادية الملحقة عليها، والابتدائية الثانية، والثانوية الملحقة عليها، إلى جوار المكتبة تماما، يوجد محل لزينات الأفراح، ومعرض موبيليا نادر الزبائن، يخص حمدي العِتر، يديره أحد أقاربه، فيما تفرغ هو لأعبائه الأخرى، التي صارت عديدة.

لم تتوقف محاضرات مايكل، عن التحذير من استفحال نفوز العِتر، واشتداد شوكة خميس وأشباهه، واتساع مساحة البطالة، وهشاشة مجالس التشريع، على اختلاف مسمياتها، فبات عديموا التأهيل رؤساء، للجان التعليم والصحة والثقافة، و...، علاوة على كروش المحليين، مشيرا إلى حتمية المقاومة، وبدا مرضيا له – على الأقل -، تناثر بعض الاحتجاجات، التي مات ابن العزوني

في إحداها، واشتعال الاختلاف بين والده وبين الخطيب، حول كونه شهيدا أم قتيلا.

فيما أجاب مايكل، عندما سُئل ليُدْلِي بدلوه، بأنه ليس مفتيا، وأن الله وحده العالم، باستشهاد الفقيد من عدمه، لكن الحَدَثَ ولاشك، سوف يُحرك الماء الراكد، وكل معركة لها حتما ضحايا، تتغذى على أرواحهم، ويكفي أن تونسيا واحدا، أتت تضحيته بروحه، برياح التغيير على سائر وطنه، كما لم يُخْفِ مايكل ضِيْقَه، من تمكُّن الحاكم التونسي المخلوع، من الهرب مع أسرته، متعجبا ممن منحه حق اللجوء، ليفلتَ من محاكمة واجبة.

وعليه تم لأول مرة استدعاؤه أمنيا، عقب آخر المحاضرة، وتُرِكَ نهارا كاملا ونصف ليل، في انتظار من يحقق معه، محذرا إياه هذه المرة، من الخوض ثانية، في مثل هذه الأوضاع، وإلا وُجِّهَتْ إليه تُهَمٌ، من تلك التي، تذهب بصاحبها وراء الشمس، لكن مايكل لم يُعْطِه وعدا بعدم الخوض.

وكم أدهشه، وصول الخبر سريعا إلى عِلم الخطيب، الذي لم يتوانَ عن إظهار الشماتة، محاولا عقد مقارنة بينه، وبين خميس الحكيم والجليل - على حد تعبيره -، فيما لم يُشِر من قريب أوبعيد إلى العِتر، الذي امتدت أواصر علاقاته، بأمثاله في أنحاء البلاد، واصفا نفسه بأبي الواجب، وبالذات عند المُلِمَّات.

وها هو بين الصفوف يتمشى، موجها المعزين إلى مقاعدهم بساحة المركز، مُحَيِّرا البعض في تصنيفه؛ تُراه بلطجياً أم فتوة أم لصاً شريفاً؟

فكم من مرة تَوَسَّطَ، لرد سيارات وبهائم مسروقة، بعد دفع الدِّيَّة للسارقين!

وكم انتصر لفقير مُعْدَم، جَارَ عليه جَارٌ غنيّ، كما أنه ونفرا آخرين، لم يتوانوا عن سحب السِّنَج والسيوف، وأحيانا البنادق، في مواجه أيَّة فئة راغبة في فرض نفوذها، مهما بدت قوتها أوثراؤها، حتى خميس والخطيب وأتباعهما، لم يقووا على مهاجمته، جبنا أواعترافا ضمنيا، بامتلاكه مَهابة خاصة، وربما تحينا لأية فرصة، تمكنهم من الإجهاز عليه.

إلا أن الخَشيةَ من العِتر، لم تَرِد على قلب مايكل، ليس عن شجاعة أوفتوة، ولكن لأن العِتر نفسه، لايناديه إلاّ َبالعم، لقرابته من والده.

وكثيرا ما فشلتْ، محاولات استبداله بآخَر، رغم إظهاره عدم الاهتمام بذلك، إذ جاءت آخِرُ المحاولات، ببديل يتزعم عصابة جَوَّالة، يغيب معها لأيام غير معلومة، ويعود بسيارات فارهة متنوعة، تسيطر عليه شيزوفرينيا الاعتداء والدمار، يَصُفُّ والديه وزوجته وأخاه صفاً واحداً، ويقف متلذذا بتذنيبهم، وقد يشجّ رأس أحدٍ، لسبب تافه أوبلا سبب، بل إنه أجبر أحد جيرانه، على عدم إقامة عزاء أخيه المتوفى، مهددا بضرب الآتين للعزاء بالنار، علاوة على كلابه شبيهة الأسود، المنصاعة لأوامره، لكنه للحق ظل محافظا، على احترام العِتر، رغم وصف الأخير له، بالرعونة وعدم الحِرفية، وتوقُّعه اقتراب نهايته.

ليأتي خبر مصرعه مدوياً، عبر أخبار التلفزيون، على يد قوات الأمن، بعد تصفية عصابته، وهم يقطعون طريقا، تؤدي إلى العاصمة، فارضين إتاوة على العابرين، لينتهي الأمر بالتورط، في قتل أحد العابرين، تبين أنه نجل ممثل سينمائي شهير.

وفي مَكْرُمَةٍ منه، لم يهدأ العِتر، إلاباصطحاب والد البديل،

والذهاب وراء جثته، مستفيدا من بعض المعارف والأماكن، التي خبرها صبيا، أثناء ارتباطه العرفي، بإحدى راقصات شارع الهرم، قبل تطليقها عنوة، ورجوعه مدقوق العظام.

ولم يهدأ له بال، حتى عادا بالجثة، لتُدفن عقب جنازة شديدة المحدودية، بمقبرة طينية، لم يستطع الدَّفَّانَّ العجوز دخولها إلابصعوبة، لانخفاض أرضيتها وبلل تُربتها، قياسا إلى جاراتها، المرتفعة عن سطح الأرض، لنصف متر على الأقل، وجرَتْ مراسمُ دفنِه، دون مصافحةٍ أوعزاء، بينما بدا الارتياح، في عيون الكثيرين وكلماتهم.

وبعزاء امرأة حافظ غريب، وأمام مركز الشباب وداخله، امتدت أسلاك النور، فيما بدأ القارىء يتنحنح، مُسَلِّكاً حنجرته، وهو لايزال يدندن، بتلاوة آياته الأولى، من سورة الإسراء.
وكان مايكل عند اقترابه من المركز، قد تفاجأ بأصحاب العزاء، المصطفين قبل الباب، وهم يهمون بالوقوف مرة واحدة، مسارعين بمد أيديهم إليه، بالمصافحة الحميمية، وكأنهم في فرح، فيما انشغل هو يالتمتمة آليا، دون حرص على انتظار الرد:
البقاء لله، لله ما أعطى ولله ما أخذ.

رَبَّتَ ابن الفقيدة على يده، كأنما يعزيه هو، في وفاة ابنته، التى اهتزت لها، مشاعر القرية منذ مدة، والتي تختلف مَيْتَتُها، عن ميتة ابنة العزوني.

أحتضنت كفاه كف الابن، ثم سحب يُمناه رافعا إياها، لتربِّتْ كتفَه مواسيا، ثم تلَقَّى حفاوةً مُعتادة، ممن امتهنوا قيادة المعزين، إلى المقاعد الخالية، وبدا مدهشا أن يقف العِتر بينهم، انبسطت أيدي القريبين منهم، مشيرة نحو جهة اليمين، ليحتل أقرب مقعد خال، في مواجهة القاريء تماما، لايفصلهما سوى صف واحد

أمامي، جاءت الجلسة وفق هواه، فأذنه على ما يعتقد، لاتضاهيها أذُن، في الاستمتاع بالتلاوة، والتفريق بين المُقرئِين، وكم جلس قُبَالَة الأفذاذ منهم، وله صولات خاصة، مع الشيخ محمود علي البنا، قاريء السورة بمسجد طنطا الأحمدي، تعود إلى تكرار زياراته القديمة له، وصلاة الجمعة به، وما لها من روحانيات، تفوق الوصف وتثير النفوس، يأتي البَنَّا غالبا، بصحبة الشيخ نصر الدين طوبار، الذي تمهد ابتهالاتُه، لشعائر الصلاة؛ وتأخذه الجلالةُ والانفعالُ الشَّجِيّ، فيتحشرج صوتُه بما يُقَشْعِرُ الأبدانَ، مرددا بصوت مهتز آسِر:

سبحانك.

وتنسكب دموع عينيه، فتنسكب بالآذان نهنهته الخاشعة، ومن أمامه ومن خلفه، تجتاح الجميعَ النهنهةُ، وهم يرددون دون اتفاق:

سبحانك يا الله.

حتى يدخل البنا بتلاوته الملائكية، فتهيج مشاعر الحضور، المُمَهَّدَة كأرض تشتاق لاحتضان الغَرْس، وتتمثل الأفهام معاني الآيات، ويغزو القلوبَ التمني، مع تلاوته الآسرة من سورة الواقعة:

"... وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ*فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ*...."،

تتوالى الآيات، ويحين أوان الخُطبة، ليعدد خطيبُها نِعَمَ الله بالآيات، من اتكاءٍ على السُّرُرِ، وطوافٍ للوِلْدَان المُخَلَّدِين بالأكواب والكئوس، وفوزٍ بما تشتهي الأنفس، من فاكهةٍ ولحمِ طيرٍ، وحورِ العِين، و...

يحل الخشوع ويستقر الانشراح بالقلوب، كيمام يستدفيء

ببطن العش، تلهج الألسنة بالدعاء، راجية اللحاقَ بِثُلَّةِ السابقين.

يهمس مايكل في نفسه:

ليت خطيب القرية كان حاضرا، علَّه يتخفف من أعباء التهديد والوعيد والتيئيس.

مراسم أثيرة، لازالت محفورة بداخله، لم يشفه منها أويعوضه، اقتناء شرائط تلاوات البنا، وكل ابتهالات طوبار.

وتلاوة عزاء الليلة، جاءت مثيرة للشجن، مُذكِّرة السامعين بالمسجد الأقصى، حاول القاريء فيها، تقليد تلاوة البنا، إلا أنه بدا كلاعب موهوب، يحتاج إلى صقل، رغم عمله مدرسا، بمعهد المدينة الأزهري. كان حاسر الرأس، يرتدي جلباباً بلدياً بلا ياقة، يُبْرِز رقبتَه الغليظة، الموشومة بزوائد سمراء، يتقاضى بضع مئات من الجنيهات، يراها البعض كافية لقضاء الليلة، وكله قرآن ربنا، والقراء الكبار يطلبون الآلاف، يعني موت وخراب بيوت!

فيما يرى آخرون، أن أية أموال لأي قاريء تُعَدّ خسارة، وبشريط كاسيت أوفلاشة، ينقضي العزاء والسلام، وأبناء المتوفاة أَوْلَى، وإلا فالتَّصَدُّق على المحتاجين فضيلةٌ، أوالتبرُّع بثلاجة شارع، صدقة جارية تجلب الثواب، مع كل شربة ماء.

أمام المركز تراصَّتْ، مقاعدُ باهتة الألوان، وكراويت مَجْلوب من البيوت، لزوم جلوس العامة، أما بالداخل فكراسي إستيل، بمقاعد ورسوم قطيفة حمراء، لايحتلها إلاَّ الأغراب، أونوعية خاصة من أهل القرية.

بلا مقدمات أومؤخرات، هاجمتْ الأغاني والزغاريد أسماعَ الجميع، فَطَغَتْ على صوت القاريء، تململ المعزون، وبان التوتر على الوجوه، توقفت التلاوة لدقائق، دون تصديق القاريء خاتما، وشاعت همهمة واسعة، اتضح خلالها أن انشغال المركز بالعزاء،

أثار حفيظة سعد حسني، الذي وافقت هذه الجمعة، زواج إحدى بناته، ولكي يقيم الفرح قُرب داره، وبدلا من مركز الشباب، دفع مبلغا لعامل المدرسة الابتدائية، مستضيفة الثانوية، وأقام بفنائها سرادقا مُدَجَّجَا بالأنوار، ومسرحا بدائيا احتلته العروس، بعد قدومها مع أخوات العريس، في عربة أيمن عديمة اللوحات، من كوافير العرائس بطرف البلدة، ومن ثم ارتفعت الأغاني والأهازيج و...

استبد الهياج بمدير المدرسة حاضر العزاء، متعجبا مما تناثر عن فعل العامل، مهددا بخصم راتبه، وهو ما لم يحدث، حيث عُلِم بعد أيام، أن الأمر تم تجاهُله، بعد تسليم العامل، ما تقاضاه من سعد حسني، إلى مسئول كبير بالإدارة.

عاودتْ التلاوةُ انطلاقها، وقعت عينا مايكل، في عينيّ العزوني، الذي احتل مقعدا، يلتصق ظهره بالحائط، الموازي لمقعد القاريء، والشرود بادٍ على صفحة وجهه غير الرائقة، وكأن جبلا من الهموم يحتل كاهليه.

وكان العزوني قد سبقه إلى العزاء، لمجرد التأخر لدقائق معدودة، قضاها مستمعا، لشكوى الخطيب وشيخه خميس، من دوران صاحبه الذي سبقه لأداء الواجب، بالهجوم عليهما بين الناس، بدعوى تشكيكهما في استشهاد ابنه المُعلم، المصروع قرب قسم الشرطة، ذات مظاهرة للمعلمين، عقب دهس زميل لهم، تحت سيارة أحد الضباط، في حَدَثٍ رأوه متعمَّدا، فراحوا يرددون هتافات عدائية، وهم يهاجمون القسم بالحجارة.

فيما يعلم مايكل، أن صاحبه لا يتبرأ، من هجومه عليهما، مستنكرا تسويتهما بين مَيْتَةِ ابنِه المعلم الثائر، وبين مَيْتَةِ مُعلم الابتدائي، القاتل من وجهة نظره، الذي وُجِدَ مقتولا وسط الحقول.

وكان الخطيب ذات خطبة له، تطرَّق إلى موضوع الشهادة، داعما حجته بالآيات والأحاديث، مفرقا بين الشهداء، الأحياء عند ربهم يُرزقون، وبين غيرهم من الأموات، ثم عرج فجأة- دون داعٍ -، ضاربا المثل بابن العزوني، حيث ضمَّنَ كلامَه، عبارات مختلفةً الصياغة، مؤداها أن من وُجِد مقتولا، قُرب مركز للشرطة، ذات مشهد احتجاجي، لايُعتبر من المذكورين في الآيات، ولايحق اعتباره شهيدا، لأنه بالتأكيد قصد نهب المركز، أوالاعتداء على ضباطه، وربما فتح حجز المجرمين، ليخرجوا دون عقاب، ليفسدوا في الأرض، ومن سعى في تهريب المفسدين، صار مفسدا مثلهم، يحتاج القتل أوالصلب، أوتقطيع يديه ورجليه من خلاف، أويتم نفيه في الأرض، وما الشهداء إلا اللذين يُقتلون، في ساحات الجهاد، من أجل نُصرة الحق.

لكن الخطيب لم يحدد، مفهوم الجهاد أوكيفيته، وضد من بالضبط، وأين هذا من مغتصبي أرض المسلمين ومقدساتهم، كفلسطين وبيت المقدس مثلا؟

وإن كان قتال المغتصبين، هو مقصده بالجهاد، ومن ثم نوال الشهادة، فلماذا لم يمتشق الحسام هو وأمثاله، ويهُبوا لقتال هؤلاء؟

أيريد للجميع القتال والشهادة، بينما يبقى هو يلهج لهم بالدعاء؟

وهل يوجد بالدنيا لديه، أفضل من الشهادة، والحياة عند الرب والتنعم برزقه؟

أليس هو القائل بنفسه، في ذات الخطبة:
لايفصل الشهيد عن الجنة، سوى الموت؟

أسئلة أثارتها خطبة الرجل، فأثارت حفيظة العزوني وذويه، فراح يجوب تجمعات الناس، حاملا أوراقه الدالة، على اعتراف الدولة بابنه كشهيد، ومَنْحِه مبلغا محترما وراتبا شهريا، زاعما أن الخطيب غَيَّر فتواه إلى العَكس، بعد فشله في بيع قطعة أرض له، لمجرد استفسار المشتري، إن كانت القطعة من إرث البائع ــ الخطيب ـ، أم من إرث أخواته البنات، فثارت ثائرته وخرج أخيرا، ليشكك في استشهاد الابن، هكذا على الملأ، ومن فوق المنبر، رغم تأكيده أمام المعزين يوم الجنازة، أن المصروع من خيرة الشهداء، ولايجب الحزن عليه، لأنه سيشفع في سبعين من أهله، ويأخذ بأيدي والديه إلى الجنة.

بل وألقى كلمة فصيحة، مُقِرَّاً فيها بأنه لايحضر، مثل هذه العزاءات، لكنه اليوم ليس في عزاء جاهلي، بل في زفاف عريس إلى الجنة، ثم توجه مع خميس، ونفر من تابعيه، لتناول وجبة الغذاء، الذي ساهم فيها كعادته، أحد تجار السيراميك الكبار.

وكان مايكل وبعض أقارب المتوفى، قد أجروا اللوم على الخطيب، عند خروجه بعد خطبة الشهادة هذه، سائلينه عن سبب تغيير فتواه، بعد هذه المدة، مما أدخل الحزن، على والديّ الشهيد وآله، فقاطعهم قائلا:

أنا لم أُفْتِ حتى أغير فتواي، هذا مجرد رأي، والحق أولى بالاتِّبَاع، والشهادة ليست لعبة، وهي للمجاهدين كما قلت، ومن لم يجاهد غازيا، لفتح بلاد الكُفر لايستحق، وإن قلنا عنه شهيد، فماذا نقول عن سيدنا''حمزة بن عبد المطلب'' وأمثاله؟

عاجله مايكل سائلا:

وماذا عن أميرَيّ المؤمنين''عمر بن الخطاب''، ''وعثمان بن عفان''، وهما لم يستشهدا في ساحات القتال؟

قال: أنا قلت رأيي على المنبر، ولن أسمح ثانية بالنقاش.

أما المُعلم الذي سَوَّتْ الخطبة، بين ميتة الشهيد المُزمع، وبين ميتته، فهو المزمع تورطه، في التغرير بابنة العزوني، قبل تركها نهبا لقاتليها، وإلقاء جثتها بالترعة، وهو نفسه المتورط، في رَكْل شقيق أيمن ركلة الموت، وهو أيضا مَن وُجِد بالحقل مُهَشَّم الرأس، وسط النمل والجعارين، وهو الذي أتي كشف الطب الشرعي على جثته، بأكبر المفاجآت، وهي أنه خُنْثى؛ لاهو بالرجل الكامل، ولا بالمرأة الكامله، ولعل هذا الاكتشاف يجيب، على السؤال المتكرر سرا وعلانية، عن عدم زواجه، رغم الأرض والمال والبيت الفخيم.

يعرف العزوني تماما، أن هذا الاكتشاف، يضرب في مقتل، الرواية التي تروقه، حول موت ابنته، فالمعلم إذن لم يخطفها، ولم يلجأ إلى مأجورين، لاحاجة له بهم أصلا، فحاجته بذلك مع الجنس الآخر، لاتتعدى مناوشات صبيانية عديمة القيمة، فهل سيبحث والدها، عن رواية أخرى عن قاتليها، تعيد لباله الراحة، أم سيظل مؤرقا دوما، دون رواية يتكيء عليها؟

وبينما جاء من الطبيعي، ورود اسم والدها، بين راغبي الثأر من المعلم المقتول، ورد أيضا اسم عم مايكل، ومن ثم ابنه أيمن، فلهما معه ثأر حقيقي، بغض النظر عما فرضته، الجلسة شبه العرفية، على المعلم في حياته، وعلى والده الميسور.

وقتها دار حديث، شكك الناس في تفاصيله، حول مجيء الحكومة بكلب الهول، ليتشمم فردة جورب، وُجِدتْ قُرب جثة المعلم، استعمَلها الجاني غالبا كواقي لليد، فسقطت حال فراره، هذا على اعتبار، أنه جانٍ واحد لاجُناة.

وبساحة المديرية، اجتمع عشرة من المُشْتَبَه فيهم، بينهم

العزوني وأيمن ووالده، في حضرة بعض الأقارب، تشمم الكلب فردة الجورب، وراح يدور حول العَشرة، دون الاهتداء القاطع، إلى شخص بعينه، أما ما أثار الضحك، في وقت لايصح فيه، هو بكاء أخت العزوني، المتواجده بين الحضور، التي سبق وسقطت قديما بالقناة، وهي تعبر الماسورة لتزور القبور، وتَلَبَّسَها دورُ الممسوسة من الجان، فلما سألوها عن سبب بكائها، ولْوَلَتْ مُفِيدَةً بأن السبب هو؛ مرور الكلب بجوار أخيها، دون أيَّ اهتمام أوتعبير. ثم ارتفعتْ ولولتُها ثانيةً، ولم تتوقف إلابعد إفهامِها، وجوبَ زغردتِها حامدةً لله؛ فالكلب لو توقف عند أخيها، أوأمسك بتلابيب جلبابه، لبات في ذلك هلاكه، باعتباره صاحب فردة الجورب، وبالتالي بات متهما حقيقيا، وربما ثبتت عليه التهمة، وعُوقِبَ بالشنق أوالرمي بالرصاص، أوسُجِن سجنا مؤبدا، في أحسن الأحوال.

فجَّرَ هذا الحادث، عددا من القضايا، معظمها تسبب في إنهاك عقل الأمه، المُفْتَرَض ارتكازه أساسا على التعليم، فهذا المقتول، كمعظم معلمي الابتدائي آنذاك، خريج الثانوية الزراعية، يُدَرِّس بموجبها العلوم، وهناك حاملون للثانوية التجارية أوالصناعية، يدرسون الرياضيات، واللغة العربية، والدراسات، بل والدين، وما أدراك ما الدين، خصوصا إذا تقمصوا دور المُفْتِين، فأطلقوا لحاهم وقصروا جلابيبهم وبناطيلهم، مقلدين أومنضمين لمريدي خميس.

ذلك قبل انتشار، خِرِّيجِي دُور المعلمين، اللذين نقلوا التعليم الابتدائي، من حال إلى حال، لدقةِ اختيارهم وتدريبهم، وعمق ما درَسوه من مناهج، ومناسبته لمهنتهم، كما كَفَلَ نظام هذه الدُّورِ، للراغبين من متفوقيها، الانتظام بكليات التربية العامة، فحققوا تفوقا ملموسا، على حاملي الثانوية العامة، وصار بعضهم

مدرسين جامعيين، بعد تحضير الماجستير والدكتوراة، وعُيِّنَ الآخرون مُعلمين بالإعدادي، ثم ارتقوا بعد سنوات إلى الثانوي، كما كفل النظام أيضا، لغير المنتظمين بالتربية العامة، التعيين بمجرد التخرج، للتدريس بالابتدائي، مع الالتحاق ببرنامج تأهيلي مكثف، لأربع سنوات كاملة، يحصلون بعد اجتيازه، على ما يعادل شهادة جامعية.

لكن قرارا مفاجئا صدر، بإغلاق دور المعلمين، لتصبح دفعة 1992ميلادية آخر خريجيها، ويتم الاعتماد لاحقا، على كليات التربية النوعية، والتعليم الأساسي، التي التحق بها آنذاك، الحاصلون على الثانوية العامة، ممن غلبهم المجموع على أمرهم، فتدفع كثيرا بخريجين مهزومين نفسيا، يحفظون بعض الموضوعات، غير قادرين على مجاراة القدامى، من خريجي المعلمين، ذوي الخبرات العملية، وشتان بين خريج، التحق بالمعلمين لسنوات خمس، راغبا في الانتماء، لمهنة أحبها وسعى إليها، ثم التحق بكلية التربية، أوببرنامج تأهيلي، لزيادة صقله وإعداده، وبين خريج الثانوية العامة، الطامح أساسا إلى الالتحاق، بكليات الطب أوالهندسة أوالاقتصاد أوالعلوم، لكن المجموع أجبره، على تغيير وجهته إلى التربية، فظلت نظرته لمهنة التدريس دونية، وهو يرى رفاق الأمس، صاروا أطباء أومهندسين أو... أوسفراء، كزوج أخت مايكل وشقيق امرأته، قبل تقاعده الاختياري.

بعد تقاعده بات وقتُ السفير مِلكا له، يقضي منه شطرا كبيرا، مع صهره مايكل، يقضيانه في الصيد، أوفي القراءة المتنوعة، خاصة أشهر الروايات، التي يتفننان في إعادة حكيها، وكأنها من تأليفهما، آخرها حكاية الصياد العجوز، بطل رواية:

''العجوز والبحر'' لـ ''أرنست هيمنجواي''، الذي عانى فيها كثيرا، ليحافظ على سمكته الضخمة، التي قاتل ليصيدها، ويحافظ عليها، حتى يثبت للجميع، أنه لايزال قادرا، على صنع المستحيل، رغم اعتزاله الصيد منذ سنوات، ورغم قِدَم قاربه وأدواته، ورغم نجاح وحوش البحر، في نهش لحم السمكة، التي عانى الأمرَّين، ليربطها بقاربه جيدا، حتى نجح أخيرا، في العودة إلى الشاطيء، بهيكلها العظمي العملاق، بعد نهش الوحوش للحم، وسط ترحيب ودهشة مُسْتَقْبِلِيه...، إنه الصياد المعلم، الذي يعتز به صغار الصيادين، ويثقون في حسن تعليمه وقبادته.

فهل يمكن لهؤلاء المعلمين، المُجبرين على ممارسة المهنة، قيادة الأجيال، كي يصنعوا المستحيل، مثلما نجح معلم الرواية العجوز؟

ناهيك عن التحاق الهاربين، من تكرار رسوبهم في الثانوية العامة، بالصف الثالث بدور المعلمين - قبل تصفيتها -، بموجب قرار سيء السُّمْعة، يحمل رقم 106 لسنة1988 أو89، أو90م، لأحد يريد أن يتذكر تاريخه، وما أسفر عنه، من إنتاج نوع آخر، من خريجين مُحَطَّمِين نفسيا وعلميا، ليشاركوا في قيادة الأجيال.

يحكي السفير ويرتاح، عن دار جيرانهم الكبيرة، الموروثة، التي خلت من ساكنيها، بعد موت الآباء والأجداد، وكِبَر الصغار، واستقلال كل منهم ببيت منفصل، متفرغين للنزاع بينهم، حول حق كل منهم في الدار الموروثة، دون أن يتفقوا على حل، وحتى في المرة الأولى التي اتفقوا فيها، قاموا بهدمها ثم بدأوا في إعادة بنائها، جاعلين من دورها الأرضي محلات، يتملك كل منهم محلا، ثم عادوا ليختلفوا هادمين ما سبق بناؤه، وهكذا في كل مرة يحدث الاتفاق؛ يهدمون ما بُني آنفا، ثم لبدأوا من جديد، دون إكمال ما

سبق.

رفع مايكل ضحكته عاليا.

استوقفته نظراة السفير المستفسرة.

بدا مايكل زكأنه خرج عن الموضوع، قال:

أكيد جيرانكم هؤلاء، من قادة التعليم عندنا، اللذين كلما جدَّت قيادة، تجاهلت جهد سابقيها، لتبدأ من الصفر، هكذا دون استراتيجية ممتدة، لاتتأثر بتغيير الأشخاص.

تنبه السفير إلى مقصد صهره، قال مقهقها:

الآن عرفت، من أين أتي الورثة، بفكرة الهدم دائما، قبل كل بناء.

شاركه مايكل القهقهة، دهِشا أومتحسرا، وهو يعيد على مسامعه، شيئا من الذكرى، لقرارات مفاجئة عجيبة، تأتي عادة في صحبة المسئولين الجدد، ألغى قرار منها الصف السادس، قبل أن يعيده مسئول تالٍ بقرار آخر، وكم غيَّرت قرارات، من أنظمة الثانوية دون سندٍ منطقي، وفي كل مرة تستجد مشكلات، تضاف إلى حشو المناهج، مع تقزيم مرتبات المعلمين، وانتشار الدروس الخصوصية، و...

إنها البلبلة التي عصفت بالعملية، فباتت ممزقة جزرا وأشلاء، وأصابت المتعلم باللامبالاة، وجعلت يد معلم المرحلة، ممدودة إلى جيوب الطالب، أو ممدودة عليه بالعقاب، ليُفاجأ الخلق بأحداث جسام، على هيئة فِعْل المعلم (الخُنْثى)، مع تلميذته ابنة العزوني، أومع ابن عم مايكل المركول، قبل العثور على جثة المعلم وسط الأرض، ويرفض آله قبول العزاء فيه، قبل الثأر قاتله المجهول، أو القبض عليه.

فيما بقى أمثاله الأحياء، يتولون بدعوى الأقدمية، أعمال المدراء بالمدارس الابتدائية، كما امتد نفوذهم إلى الإعدادي

والثانوي، معلمين للتربية الفنية، والموسيقية، والمجال الصناعي أوالزراعي، وهم غير قادرين على رسم بطة، أوالتفريق بين سلم العمارة والسلم الموسيقي، أوتركيب لمبة سليمة، بدلا من أخرى تالفة، هذا دون ذنب لهم، أوتقليل من مؤهلاتهم، بل لعدم إلحاقهم، بوظائف تتفق مع مهاراتهم التي يتقنونها، ربما عن غير المتخصصين فيها، ولو كانوا جامعيين.

تمتد ساحة مركز الشباب، لعشرين متراً تقريباً، يتوسطها باب الدخول والخروج، الفاتح على مساحة مُسَوَّرَة أمامة، يليها الأسفلت ثم الترعة الراكدة، أما عُرض الساحة، فلا يزيد عن سبعة أمتار، تصطف بها الكراسي بالطول، لصق كل جدارٍ صف، وأربعة صفوف في الوسط، كل صفين يتلاصقان ظَهرا لظهر، مع وجود ممرات بالعرض والطول، لمرور المعزين ومرشديهم، إلى الكراسي الخالية، بينما على يسار الداخل، في أقصى الساحة، تنزوي دورةُ مياه، ومكان ضيق لإعداد الشاي والقهوة، أما في أقصى اليمين، فتوجد حجرات ثلاث إدارية مُغَلَّقة.

في مواجهة الداخل، لصق الجدار المقابل، يتربع قاريء الليلة، فوق مقعد أشبه بأريكة مرتفعة، تتسع لشخص آخر بجواره، أمامه منضدة عالية، بِقُرْص نحاسي أصفر، له استدارة صينية صغيرة، عليها كوب ينسون أوحلبة، تمتد إليها يده بين الآيات، ليأخذ رشفة أورشفتين، يحرص أن تكونا صامتتين، حتى لاتُحْدِثان صوتا، بسمَّاعة الميكروفون الحساسة.

بنفس الجدار الملاصق لأريكة القاريء، وقبل الحجرات الإدارية الثلاث، يتجاور بابان مغلقان، مكتوب أعلى أحدهما: المكتبة.

وما أدراك بما يجلبه المكتوب، على قلب مايكل من تداعٍ.
أما أعلى الباب الثاني فمكتوب:
غُرفة الحديد.

استجلب العنوان الثاني، ضرورة النظر، نحو حمدي العِتر، الواقف بين الجالسين، منتفخ الأوداج والعضل، الذي ما كان يحل بحجرة الحديد، حتى يسارع الموجودون، بترك ما بأيديهم، كي يمارس هوايته، رافعا كل ما يتاح من أوزان.
يوشك مايكل، أن يتضرع إلى الله شاكرا، لأن حجرة بمركز الشباب، أنتجت أوساهمت في إنتاج، من يستطيع حفظ كرامة القرية، من بلطجية البلاد المجاورة، المعروفين اسما ورسما.
لكن ذاكرته لم تستطع، تجاهل حَكايا الغابرين، عن فخر البلاد زمان؛ لأن أحد أبنائها صار وكيلاً للنيابة، أوقبطانا، أومحاميا معروفا، ويا هناءة للبلدة التي أنجبت، طيارا أوأية رتبة بالجيش أوالشرطة.
اليوم تعج الدنيا، بعدد لابأس به، من وكلاء النيابة، والمهندسين، وأساتذة الجامعة، والدبلوماسيين، والضباط، والصحافيين، والكُتَّاب أمثال مايكل، وكل هذا لايثير انتباهاً حقيقيا، أويُعَدُّ مجالاً للفخر.
لكن شخصا واحدا، قويَّ الشكيمة مثل العِتر، كفيلٌ بمنح البلدة، أسباباً للحديث عنه وتفنيد أفعاله، التي يعدونها عظيمة؛ فعربة شقيق السفير نصف النقل، تم استلابها بطريق المنصورة كفر الشيخ، وهي في طريقها، لتسليم حمولتها من الموبيليا، لأحد تجار كفر الزيات، بينما هَرْوَلَ سائقُها وصَبِيُّه، مُتَخَبِّطَين في الظلام، وسط الحقول الممتدة، وطلقات الطبنجات تعلو رأسيهما،

ولولا وساطة العِتر (الهُمام)، الذي تباحَثَ وسَاوَمَ الخاطفين – لا يُعرف كيف -، ليصل إلى اتفاق حاسم؛ دفع بموجبه صاحبُها، دِيَّةً تساوي ثلث ثمنها، حيث ذهب سائقها، والذعر يسكنه لايزال، إلى المكان المحدد، ليجدها في انتظاره، مسلوبة الحمولة والكاسيت والمرايا، فيقودها عائدا، وسط التهليل والمباركة.

يتجمع الخلق، يتساءل سعد حسني:

هل لهذا أن يحدث، في أي مكان؟

يجيب العِتر بهدوء:

نعم يحدث، وفي أية بقعة على وجه الأرض؟!.

ينظر أخو السفير نحو أخيه، متسائلا فيما يشبه الاستهانة:

بل قل هل يمكن، لكل سفراء الناحية، ومهندسيها و...، رد العربة بهذه السرعة؟

يصيب رأس السفير التَّلَفُّتُ، وابتسامته الخفيفة تُخفي حيرته، يقول أخيرا:

أنا لست متسامحا في مبلغ الدِّيَّة.

ومبلغ الدِّيَّة، لم يدفع منه المُضَار جنيها، فالناس كما اعتادوا في حالات كتلك، يشكلون لجنة لجمعه، يُعلَن عنها بميكروفون المسجد، عقب صلاة العصر، فيتبرع كل راغب، حسب قدرته دون إجبار، ويُعْلَن عن اسمه، ومبلغ تبرُّعِه على الملأ، ثم يُسَجَّل بكشف مُجَمَّع، يُسَلَّم لصاحب العربة، وإيَّاكم من إبلاغ الشرطة.

- يقول العزوني:

والله لو كانت عربتي كنت...

- يقاطعة سعد حسني قائلا:

انكتم ياعزوني.

فيلقي العزوني بعينيه نحو الأرض طائعا.

يقول البعض للبعض؛ العِتر ولد شهم، ولم ولن يسكت إلابعد إتمام الصفقات، واستعادة المسروقات.

وما حدث مع عربة شقيق السفير، حدث مع عربة العم زاهر الملاكي، ومن طريق المنصورة كفر الشيخ، إلى طريق الإسماعلية السويس يا قلب لاتحزن، والفارق البسيط؛ هو ضرب اللصوص، للعم زاهر بالرصاص، بلا سبب مقنع، فهشمت الطلقة إحدى زراعيه، وتركوه مُدرجاً فى دمائه، وهو يسألهم متألما، عن سبب ضربهم له، بعد تسليم العربة لهم دون مقاومة، واستعداده التام لتوفير مبلغ الدِّيَّة، إذا ما طلبوه لاحقا!

بينما فرَّ رفيقه تاجر الفاكهة، بين الأشجار والنخيل، بأمواله المخصصة لصفقة المانجو، التي لم تتم، بسبب مغالاة صاحبها في السعر.

تكلَّفَتْ عملية ذراع العم زاهر، مبلغا ليس بالقليل، إلى جانب قيمة الدِّيَّة، التي تبرع كبير تجار مزارع الفاكهة، بتوصيلها إلى تُجَّارٍ أكبر بالسويس، ادَّعَى سابق معرفته بهم، مؤكدا واسع خبرتهم في هذا المجال، لكنه أخطأ الخطأ الفادح، أوبالأحْرَى الخطأين الفادحين؛ عندما تجاهل العِتر تماما، ثم بادر بإبلاغ الشرطة.

وعليه قَصَدَ معارِفَه السوايسة، بميكروباص حديث، مما تم ترخيصهم للركاب، بأرقام العربات القديمة، امتلأ عن آخره براغبي المجاملة، أقروا هاتفيا بوصولهم إلى المكان المحدد، وبأن المباحثات تسير على ما يرام، لكنهم فاجأوا الجميع، بالعودة بعد ثلاثة أيام، يحملون وِزْرَ الهزيمةِ والتهديد بالقتل، بعد تسليم الدِّيَّة، التي أبلغهم الوسطاءُ، بأنهم فعلوا ما عليهم، وسلموها إلى الخاطفين، الغاضبين بسبب إبلاغ الشرطة.

مَن تُراه أبلغهم، بموضوع الإبلاغ هذا؟
ومَن...؟ ومَن...؟!
إنها دائرة حلزونية، الداخل وسطها مفقود، والخارج منها مولود، وحمداً لله على سلامتكم، وفداؤكم أموال الدنيا، وألف عربة، و...، وكلام كهذا لايقدم ولايؤخر، أمام تأوُّهات ودموع العم زاهر، الذي صارت خسارته ثلاثية الأبعاد؛ ذراعه، وعربته، ثم مبلغ الدِّيَّة، الذي يُعَدُّ دَيْنا عليه، مثل نقوط الأفراح، لايسقط إلابسداده.
قال اللائمون:
ما الذي فعل بكم هذا، لماذا تجاهلتم (عِترنا) الشَّهم؟
العيش أولى بخبَّازه، ولو أكل نصفه، والعِتر صار مقموصاً، ولم تعد مُصالحته يسيرة.
ياخبر...!
كل هذا وغيره، دار برأس مايكل، لمجرد قراءة عبارة: (حجرة الحديد)، أعلى أحد البابين المغلقين، خلف أريكة قاريء العزاء!
ولم لا؟
فالكتابة رهنُ الوقتِ الطويل، لأنه لابد في النهاية، من إنجاز مُنْتَجٍ مادِّيٍّ ملموس، وبِضْعُ ثوانٍ من التَّذَكُّر اللامكتوب، في حاجةٍ إلى ساعاتٍ من الكتابة، التي تُعَدّ لدى مايكل، أحد مصادر الرزق.
بَدَتْ هيئةُ قاريء العزاء، المُتَخَلِّي عن زيه الأزهري، شبيهةٌ بهيئات المصطفين أمامه، اللذين ربما لايشغلهم التفكير، في محتوى الأيات، فكل رأس به ما يكفي، من مشاغل تنتظره بعد الانصراف، وعلى لسانه توشك أن تجري دعوته، بأن يُعَجِّل القاريءُ بالتصديق.

أما القاريءُ نفسُه، فهو نِتاجُ ظاهرةٍ، تجتاح البلدان المجاورة؛ فمعظم حَفَظَةِ القرآن أوأجزاء منه، من معلمي المدارس العامة والأزهرية، باتوا يَعْمَدُون إلى التلاوة بالعزاءات، لقاءَ أجرٍ ماديّ، بعدما تضاءلتْ مرتباتهم أمام وَحْشِ الغلاء، وبعدما ارتفعت أجور القراء، رغم تقلُّص عدد المآتم، بفعل دعوة خميس ورفاقه، وفي مقدمتهم الخطيب، وأمثالهم بالقرى والكفور.

بدأ القاريء تاليا، من أول سورة الإسراء: ''سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى...''.

أشار إليه أحد المعزين، من معلمي اللغة العربية بالثانوي، فتوقفت التلاوة، تقدم من الأريكة مستئذنا، قبل الإمساك بالمايك، ثم راح في حديث، حول ما تمت تلاوته:

فالذي أسرى؛ هو الله سبحانه وتعالى، اما المُسْرَى به؛ فهو نبي الله محمد بن عبد الله- ﷺ -، أما المُسْرَى منه؛ فخير بقعة على وجه الأرض، المسجد الحرام بمكة المكرمة، قِبلة المسلمين في سائر البقاع، والمُسْرَى إليه، هو المسجد الأقصى بالقدس الشريف، أُولَى القبلتين وثالث المساجد، التي يُشَدُّ إليها الرِّحال، بعد الحرم المكي، والحرم النبوي بالمدينة المنورة.

لم يترك حديث المعلم، ذهن مايكل خاليا، حتى بعد ترك المايك، وعودة القاريء مواصلا التلاوة؛ فالكلمات قليلة حقا، لكن الدلالات تحتاج إلى مجلدات، والآيات تثير كل التقديس والإجلال والحنين، فالمسجد الأقصى لايزال أسيراً، في أيدي مغتصبيه، ولابد من ربط المُعْتَقَد بالواقع، واقتران الأقوال بالأفعال، وعقلُ مصر طوال تاريخها مشغول، بفلسطين وأهلها ومسجدها العظيم، وحَتْمِيَّةُ

استعادتِه هدفٌ دائم، كم من معركة دارت، وكم من معركة قد تدور، والحرب سجال؛ مرة هنا وأخرى هناك، حتى يأتي النصر الموعود.

أمام عينيّ مايكل، يكشف الواقع عن وَجهٍ قبيح، فأصحاب القضية أنفسهم، باتوا شِيَعا وحركات، بغض النظر عن المُسميات، وفي حاجة إلى ثورة، تُلملم أشلاءَ قلوبِهم الممزقة، متأسِّين بقلوب التوانسة، اللذين أجبروا قاهري الشعب، على الفرار كالجرذان؟

هل يفعلها الفلسطينيون؟

وهل يفعلها المصريون، اللذين هم في حاجة، إلى الوقوف على أقدامهم، قبل الدخول في معترك جديد، لاستعادة الأقصى؟.

يقول مايكل في محاضراته، التي لم يستطع خميس إيقافها: بأن الكثيرين لازالوا مؤمنين، بحاجة البلاد إلى من يجبر كسرها، ويسترد منهوبها، ويعيد بناء ما تهدَّم أو أُزِيل، كمبنى الإعدادية الثانوية، الذي بات فضاء، ترمح فيه الكلاب والحمير، وتُشَمِّسُ فيه النسوةُ حبوبها، على فَرْشَاتٍ قديمة،... فحتما ستتبع إعادةُ بنائه، عودة طلابه إليه، كأشبال عادوا لأحضان أمهاتهم، بعد انتزاعهم منها قسرا، تاركين صغار الابتدائي وشأنهم.

ماذا يمكن لرئيس لجنة التعليم بالمحليات، حامل الثانوية الصناعية أن يفعل؟

أكثر من دورة مرت على وجوده، وعلاقته بالتعليم، كعلاقة بائع البطيخ، بقيادة طائرة حربية، أما رئيس لجنة الصحة، فيعمل فني وسائل بالإدارة التعليمية، وحتى الخطيب نفسه، ظل لسنوات مقيما للشعائر بالإعدادية، أهم أدواره أداء الأذان، حتى حصل على الثانوية منزليا، والتحق بمعهد متوسط، فساعد خميس ومعارفه، على الاستقرار في الخطابة بالمسجد.

تُرى عن أي الموضوعات، يمكن أن تدور محاضرة مايكل القادمة، أويدور مقاله القادم، المزمع نشره إلكترونيا، في حال تعكير تابعي خميس لأجواء المحاضرة؟ هل يتناول حكاية عن العزوني وابنه، المصنف حكوميا كشهيد، ويراه الخطيب قتيلا، أم عن المعلم (الخُنْثى)، القاتل ثم المقتول، أم يدور دورَةً جديدة، عن المبني المُزال للمدرستين، ولم تقم له بعد قائمة، أم عن الشرطة ومعاملاتها للخلق، أم عن العِتر؟

العِتر؟!... ولم لا؟

فلولاه وقفته، ما استرد سعد حسني، ثمن مفصل أخيه الصناعي؛ والموضوع باختصار شديد؛ أن الأخ الأكبر لسعد، عاش خمسين عاماً، مع جسده في شبه سلام، إلى أن باتت تهاجمه آلام مبرحة، بأعلى كتفه اليمنى، لم تُجْدِ معها الأدوية، أوجلسات العلاج الطبيعي، وباتت حركة ذراعه شبه مشلولة، وكم من مرة أزعجته المَشُورةُ، وأثبتتْ الأشعات، حتميّة تبديل مِفصله بآخر صناعي، باعتباره وأقاربه باتوا من القادرين، بعد دخول أفدنتهم كردون المباني، ثم اشتغالهم بالتجارة، وتعليم أبنائهم بالجامعات.

بدا الأمر يسيرا، إلا أن أخا سعد هذا، لايخشى شيئا في الدنيا، خشيته من لقاء الأطباء، سيَّما حال اقترانه بالجراحة، حتى لو كانت لفتح دمّل سطحي، لكنه رضخ أمام الآلام وضغط المحيطين، وإلى أفخم مستشفيات المدينة، تقدم مع رَكْبٍ من الأهل، اجتهد الأطباء، في ضبط السكر والضغط، الذي يعانيِ منهما منذ فترة، وتهيأت كل الأسباب بغرفة العمليات، لاستبدال المفصل الأصلى بالصناعي، المدفوع فيه مبلغ ليس بالقليل، علاوة على تكاليف العملية، والإقامة وماشابه.

أشارتْ كلُّ المقدماتِ، إلى نجاح العملية، إلاَّ أن حرارةَ المريض ارتفعت، بعد إفاقته من البنج، واستجابة امرأته لِطَلَبِهِ خِلْسَة، بمنحه جرعة محدودة من الماء.

أشار الطبيب بتعليق محلول ما، كي تعود الحرارة لقياسِها المُفْتَرَض، لكن غيبوبة أخذته، بعد انتصاف عبوة المحلول، ليعود إلى غرفة العمليات، ويتم تعامل بدنه، مع عدة أجهزة؛ فارق معها الحياة.

ورغم عمل أحد أولاده بالجامعةً، لم يفتح أحدهم فمه بأي استفسار، حول تأثير هذا المحلول، خشية تعرُّض الجثة للتشريح، وهذا في عُرْف القرويين مصيبة، ترقَى لمستوى العيب أوالحرام.

ليُحْمَلْ الرجلُ ملفوفاً داخل الإسعاف، عائدا إلى مسقط رأسه، ويتم الاكتشاف العجيب، على أيدي مُغَسِّليه من رجال خميس، وهو اختفاء المفصل الصناعي، صاحب المبلغ الكبير.

ربما استنتج القائمون على المستشفى، أن هؤلاء القوم، لاقوة لهم ولاشكيمة، وسكوتهم عن موضوع المحلول، بالتأكيد سيتبعه سكوت مماثل، عن اختفاء المفصل، فهو مهما غلا ثمنه، لن يساوى قيمة الرجل، الذي له إضافة إلى أولاده البنين، ستٌ من البنات، متزوجات من ستة رجال، تتنوع أعمالهم بين التدريس، والهندسة، والمحاماة، والضرائب العقارية...

قال مسئول الصحة بالمجلس المحلي:

ولايهمكم، سأقدم مذكرة لرئيس المجلس، ليرفعها إلى مجلس المركز، ثم مجلس المحافظة، ثم المحافظ.

لكن أحدا لم يعطه أُذُنا.

عندما هاتَفَ سعد مسئولي المستشفى، أنكروا علمهم

بفقدان المفصل، ودخلوا معه في جدل فارغ، فانتحى جانبا بقريبهم العِتر، الموجود من أجل الجنازة، فاصطحب معه وفداً على شاكلته، واقتحم المستشفى مهددا متوعدا، فلم يجد مديرها خلاصا، إلابمنحه المبلغ دون مساومة، زاعما أنهم تصرفوا في المفصل.

أخذ العِتر بضعة آلاف، تَرْضِيَةً لمُرَافِقِيه، مُقْسِمَا ألاّينالـه منها شيئا، ثم أعاد لسعد وأولاد أخيه باقي المبلغ، فكان كافيا لاستقدام سرادق ممدود، وإضاءة عالية، وقاريء من الإذاعة، وطعام للضيوف والأغراب.

وليتندر الناس قائلين:

للبلطجي سبع فوائد.

أو رُبَّ بلطجي لك، لم تلده أمك.

ومَن لابلطجيا له، يشترى له بلطجياً.

... وهكذا.

لابد من التخطيط سريعا لكتابة رواية، بطلها حمدي العِتر، ولابأس لو حملت اسمه عنوانا.

هكذا أَسَرَّ مايكل، وسَيلٌ من التداعِي لازال، يحلّ على رأسِه، حال تواجده برُدْهَةَ المركز، مُشاركا في عزاء امرأة حافظ غريب، صديق والده الراحل، إنها نفس الرُّدْهَةَ، التي طالما جمعته، بفريق الكرة بالقرية، لاعبا أومدربا بعد الاعتزال، عند الفوز على القريتين، المجاورتين شمالاً ويميناً، وأيضا عند الهزائم، المتبوعة غالبا بمعارك العصى والحَصَى، وهي نفس الرُّدْهَةَ، التي شاهد فيها تلفزيونياً، انتصارات وهزائم المنتخب الوطني، أوالنادي الذي يشجعه، الخصم اللدود لفريق العزوني، بعد تشفير القنوات، وصعوبة استحضارها بتلفزيونات البيوت، فرُدْهَةُ المركز صِنْوُ الحياةِ، محلا لبعث البهجة حينا، كبراعم الياسمين الفَوَّاحة، وحينا

تنوء بصمت الأحزان، كشوك أغصان الياسمين الدَّامي، لايشاركها في ذلك إلا رُدْهَة المضيفة.

أما مكتبة المركز، فوعْيُ القائمين عليها غائبٌ؛ مجرد مخزن للكراتين المُعَبَأة، وكم من كُتب سُرِقَتْ أوأُتْلِفَتْ، دون أية إثارة للعجب، يكفيه فقط إهداؤها - على سبيل الشعور بالواجب -، شيئا من مؤلفاته، لعل أحدا يتصفح بعضها، ليعرف أن ثمة شخص هنا، قضى عمره قراءةً وكتابةً، دون أن تصل حاله، إلى حال سعد حسني وأخيه المرحوم، بعد بيع أرضهم مترا بمتر، أوحال تجار الموبيليا، أوحتى تجار الأسماك، اللذين كانوا غالبا تلاميذا ضعافا، خطفهم التسرب التعليمي لأسباب مختلفة، بعضهم كائن بالردهة، لقضاء واجب العزاء، غير مدرك لمعنى آية واحدة، مما تجري على لسان القاريء، يحتلون مقاعدهم، بين تشكيلات عجيبة التباين من الوجوه، بتفصيلاتها العديدة؛ فتشكيلات العيون تختلف؛ من ضَيِّقة إلى واسعة، ومن سوداء إلى عسلية أوملونة، برموش طوال أوقصار أوبلا رموش، وتشكيلات أخرى من الأنوف، المفلطحة أوالمنمنمة، مستقيمة أومعقوقة، أو...

أما الشفاة والأفواه والأسنان، فلا يوجد مَلْمَحٌ، يخطر تخيُّلُه على بال، إلاَّ ووُجِد مُرَكَّبَا، في وجه أوأكثر، من وجوه الجالسين، صامتين أومتمتمين، أومتثائبين، أوغافلين بعيون مغمضة.

أما التشكيلات الأبشع تنوعاً، فهى للثياب، ومداسات الأقدام، وأغطية الرءوس؛ جلابيب بلدي بأكمام ضيقة وياقات، وأخرى فلاحي بأكمام واسعة، وفتحات علوية ملساء، بعضها متسخ أونصف متسخ، وتشكيل عجيب من القمصان، والسويترات والبناطيل والبلاطي، أما أغطية الرءوس، فحدِّث أيَّما حديث؛

طواقي غنمية الصوف، أوقماشية بحوائط عادية، أومُسْتَجْلَبَة شبكية أومُصْمَتة، وشِيلان بيضاء أوملونة، وشِمَاغات وغُتَر خليجية وفلسطينية، وشَمْلات أوتلافِيح مختلفة الأطوال، ملفوفة حول الرءوس أوالأعناق، أومُلقاة على الأكتاف، طرف للأمام وآخر للخلف، كشَمْلَةِ أيمن ابن عمه، وقليل من العمائم، علاوة على الرءوس الحاسرة، بقصَّاتها حادّة الاختلاف، تبدأ من الحليق الأملس، وتنتهي بشعر الشباب، المتدلي حول الرقبة، مُلامِساً أعْلَى الظهر.

إنه التأمل، ومحاولة استنتاج دواخل الناس، وتصرفاتهم، وطرائق حيواتهم، من خلال ملامحهم أوملابسهم، وصوت القاريء الأزهري لايزال مُجلْجِلاً، في مكبرات الصوت الحديثة، بآيات سورة الإسراء، ولايزال المسجد الأقصى، الذي بارك الله حوله، أسيراً في أيدى فاحِتِي الأنفاق من تحته، في دَأَبٍ مُنَظَّمٍ غير مُتَعَجِّل، واثقين تماماً، مثلما يثق مايكل، أن عمْرَ المبنى المقدس، مقصوفٌ لامحالة، وأن انهيارَه آتٍ آتٍ، ولو بعد حين، هكذا خَبِرَ مغتصبوه الحياةَ وخبرتهم، مثلما ظلوا واثقين كل الثقة، أنه سيأتي يوم، وتتغير فيه النظرة إليهم، فكم كان الإنكار والاستنكار والاستنفار، ثم جاءت المعاهدات والاتفاقات، السرية ثم العلنية، ومن أبناء جِلْدَةِ العرب، مَن سافرَ للإقامة هناك، متزوجاً من بناتهم، ثم عاد مُحَمَّلاً بالأموال، وبأبناء سوف يتدينون، بدين أمهاتهم اليهوديات، ولكنهم سيحملون، جنسيات آبائهم العرب رغم الأنوف، بحكم قانون غشيم، من فصيلة قوانين إلغاء المعلمين، وإلغاء الصف السادس، ثم إعادته، وإلغاء منح الباصات الجديدة لوحات الأجرة، و...، قانون لاأحد يُعْرَفُ واضعوه، ولا تُعْرَفُ غاياتُهم، ليتحول الزوج العربي، الذي صار أبَاً، إلى شوكة كئود،

في ظهر وطنه، ولابأس إذا توفاه الله، فأبناؤه من امرأته اليهودية، سيرثون تركته من بعده، التي يمكن أن تكون أرضا أوبيوتا، وما أجمل أن تأتي الأرض لليهود، شرعيا وقانونيا، أليست ميراثا؟.

وهنا لن يبقوا مجرد أشواك، في ظهْر الوطن، بل حِرابا مسنونة، تدين بالولاء لوطن أمهم، القائم على أرض عربية أيضا، أمهم التي يخلو قلبها من الرحمة، نحو موطن رَجُلِها الأصلي، الذي بخل عليه، فلم يعطه - في رأيها وربما في رأيه -، لكن وطنها المتهم ظلما، بمعاداته للعرب - كما تقول -، شمله بحنانه، مانحا إياه المال والجمال والعيال...، والأم التي أعطتْ، خير من الأم التي ولدت.

تفاجأ مايكل بتصديق القاريء، وانتهاء رُبع المغرب القرآني، ويتبقى ربع العشاء، وبعده يجتمع الأقارب والغرباء، لتناول وجبة اليوم الثانية، من لحمٍ عِجل المتوفاة، الذي انطرح مرة على الغذاء، عقب رُبع الظُّهر، في مخالفة لما يجب أن يكون؛ فليس على أهل المأتم، أي ذَبْح أوطهي، بل يجب على الأقارب والأصحاب، أن يصنعوا لهم طعامًا دون المعزين؛ لأنهم يكونون في شُغْل بمُصابهم، يمنعهم من إعداده، حيث قال- ﷺ-:''اصنعوا لأهل جعفر طعامًا فإنه قد جاءهم ما يشغلُهم'' - وهو حديث أخرجه الترمزي -، والمقصود هنا هو جعفر بن الوليد، وما شغل أهله وقتها، إلا استشهادة في غزوة مؤتة، التي كانت ضد الغسانيين والروم - عام8ه/629م-، بسبب قتل الصحابي الحارث بن عُمير الأزدي، رسول النبي محمد إلى ملك بصرى، على يد شرحبيل بن عمرو الغساني، والِي البلقاء، الواقع تحت الحماية الرومانية.

انتظر مايكل قليلاً، ليخرج المُتَعَجّلون، قبل الاندساس وسط الخارجين، مُعلِّقاً على مشهدٍ، يراه لأول مرة، وهو انتحاء أهل

المتوفاة جانباً، مُفْسِحِين الطريقَ للمنصرفين، دون بقاء الاصطفاف، كعادة الأهل الموروثة، لتوديع الراغبين في تأكيد واجبهم بمعاودة السلام.

تساءل صامتا:

منذ متى حلت تلك العادة؟

وهل تستمر، كما استمرت زيارات الجمعة، بدلا من الخميس؟

ورغم استحسانه لها، تساءل من جديد:

منذ متى حلَّتْ؟

ولماذا؟

****

الرَّحِم

إلى دار مايكل تأتي العربة، بحِمْل من قمح أو أرز، أو أي نتاج لأرض السفير، القائم سعد على رعايتها أخيراً، بنظام المُزارعة؛ مقابل نصف المحصول.

يعلو الحَرَجُ وجهَ صاحب الدار، فيعاجله السفيرُ سائلا:

ألا تعلم يا صهري، أن صلة الأرحام، تعمِّر الديار، وتزيد في الأعمار؟

تستحيل ملامحُ الوجهِ الحَرِجِ، إلى بشاشةٍ راضيةٍ، وهو يجيب:

بلى أعلم.

لم ينس السفير له يوما، عديدَ الوقفات إلى جواره، بداية من اختياره زوجا لأخته، من بين العشرات، مرورا باحتوائها وبناتها، وقتما كان سفيرا حديثا يجوب الأقطار.

وكذلك وقوفه معه، في معركة استعادة أرضه، التي ظلت عمرا، أسيرةَ مستأجرها القديم، حتى تم نزعها نزعا، بموجب قرار مفاجيء - كالعادة -، أغضب المستأجرين، وأنصف المُلاك الأصليين، مما جعله يقبض عليها قبضا، يؤجرها لمن يشاء، أويزرعها لنفسه، أوبالمُزارَعَةِ كما هو الآن.

مَثَّلَ استردادُ الأرضِ، نقلةً في حياة السفير، رافضا العروض المتعددة لشرائها، أحدها من أخيه الشقيق، الذي سبق فشله في تعليمه الأزهري، فصال وجال بين ورش النجارة، ليصبح بمرور السنين، أحد تجارها الكبار، تدفعه رغبةٌ عارمة، في شراء أرض أخيه، ولو بضعف ثمنها، رغم شرائه رُقَع أخرى وأفدنة، تزيد عن نصيبه من الإرث.

وكم حاول إغراء أخيه، بالفارق الشاسع، بين عائدها الحالي، وبين العائد الكبير، حال إيداع ثمنها بالبنوك.

- قال السفير بحسم:

لاتتعب نفسك أخي، فأنا لن أخالف، وصية والدي بعدم البيع؟!.

- رد أخوه منفعلا:

أنت عديم الأولاد، وسيئول إرث أرضك، لأزواج بناتك الأغراب.

- تملَّكه الصمت قليلا، ثم قال بهدوء:

وأنت أيضا سوف ترثك زوجتُك الغريبة، أوتَرثها، وكله مقسوم.

أضاف:

ثم من قال إنهم أغراب؟

كيف أستأمنهم على عرضي، ولاأستأمنهم على أرضي؟!

- ...

ولعل مضمون هذا الحوار، يعطي للمتأملين تفسيرا مُحْتَمَلا، لرفض السفير ارتباط إحدى بناته، بابن خطيب المسجد، الذي له موقف غريب من إرث أخواته، رغم جَهْره في الخُطَب بغير ذلك.

يومها جاء الخطيب، مصطحبا شيخه خميس، أملا في الاستقواء به.

سأله السفير، في حضرة شيخه:-

ألَسْتَ المُرَدِّد على المنبر:

'' وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ '' –الإسراء/آية 26-

ألَسْتَ المنادِي بأعلى صوتك:

يا عباد الله، اتَّقوه وأطيعوه، واعلَموا أنَّ للرَّحِم شأنًا عظيمًا، فصِلُوها واحذَرُوا قطيعتها؟!.

ضغَطَ الخطيبُ أسنانَه، حتى سُمِعَ صوتُ احتكاكِها، ثم قال محاولا كظم غيظه:
لاعليك مما أقول، المهم ماذا تقول أنت، فيما جئنا من أجله؟
نظر السفير نحو خميس، سائلا:
أيرضيك أيها الشيخ، أن تأكل ابنتي من حرام؟
تَكَرْمَشَ وجهُ الشيخ، قبل مبادرته بالانصراف، جارَّاً صاحبه دون أية إضافة.
إنه نفس السؤال، الذي ألقَمَهُ السفيرُ، آذانَ العِتر ووالدِه، عندما أقبلا لنفس الغرض:
أيرضيكما أن تأكل ابنتي من حرام؟
قال والد العِتر:
كيف تقول هذا أمامنا، ونحن أقارب أم البنات؟
قال:
القولُ أمامك، أفضل منه خلف ظهرك، واسأل ابنك هذا؛ من أين تأتيه الأموال؟
أما عن قرابتك لأم بناتي، فهي على العين والرأس.
بَرَقَتْ عينا الرجل دهشةً وضِيقا، وهو يسحب ابنه منصرفا، يتمتم بكلمات غير واضحة.
تَلَقَّتْ بناتُ الأختِ تعليمَهن الأول، بالمدرسة صاحبة أشهر ضحيتين؛ أخي أيمن المركول، وابنةِ العزوني الهالكة، ولكن خَشْيَةَ المعلمين من والدهن، ظلت بين أعينهم، منذ كرر أحدهم، على أذنيّ كُبراهن عبارة:
أرى البحر في عينيك الزرقاوين.
فلما حفظتْ البنتُ العبارةَ، أعادتها على مسامع أمها، وعليه

انتقلت إلى والدها، فكاد المعلم أن يفقد عمله، لولا تقبيله للرءوس والأيدي.

ثم التحقن بالإعدادية، ومن بعدها الثانوية، قبل إزالة مبناهما الأصلي، إلا كبراهن هذه، فقد التحقت بعد الإعدادية، بدار المعلمين والمعلمات بالمدينة - قبل قرار إلْغَائها -، تروح وتجيء، في عربة أيمن القديمة، لقاء أجر شهري، حيث تسلُك العربة، مَدْخَلا خلفيا للمدينة، هربا من رجال المرور، المتربصين لمثيلاتها.

ولأنها بلا آلة تنبيه، يعتلي أحد الصِّبْية، ظهرها أورفرفها الأيمن، وبيده قطعة حديدية، يدق بها الصاج، ليُحدث مزيدا من الجلَبَة، وهو يصرخ من حين لآخر:

أوعَ وِشَّك.

فيَتَضَاحَكُ الركاب بالداخل، وفوق الرفارف والشبَكَة، كما يتَضَاحَكُ السائرون على جانبي الطريق، المتوجسون والمتأهبون للفرار، تَحَسُّبا لدخولها عليهم، وكأن الأمر لُعْبَة - وهو ليس كذلك -، فكم من حوادثٍ وقعتْ لها، انخلع في آخرها، العمود الأمامي بعجلتيه، فانحرفت لتصبح في مواجهةٍ، مع تِرلّة بالاتجاه المعاكس، تحمل حاوية للغلال، فتهشمت كابينة التِرلّة، فيما لم يتأثر كثيرا، هيكل العربة سميكة الصاج، لكن كَسْرَاً مُضَعَّفا، أصاب ذراع سائقها ابن أيمن، وأصاب الارتجاج اثنين من ركابها، المتشعبطين بالشبكة، كما أصيب العموده الفقري لثالث، مع كسور بالضلوع، وليس هذا فحسب، فقد رفعتْ شركة التِرلّةِ، مهشمة الكابينة قضيةً، ظل أيمن وابنه، غارقَين فيها لسنوات.

جاء هذا عقب انتهاء الزوبعة، التي رماه فيها مازن ابن أخيه، بالجهل وعدم الحل والربط، فحاول وقتها أيمن العودة، للمطالبة

بحقه في البيت، ليساعده في نفقات القضية، لكن الأمر لم يعد ممكنا، بعد سابق توثيق تنازُلِه، وطَمْرِه بتوقيعات الشهود، علاوة على تأثير العزوني عليه.

وفي إشارة لوقوع الحادث يوم الجمعة، علق السفير مازحا: الحمد لله، ها هو اليوم المبارك، يتحفنا بإحدى كراماته، وتكون ابنتنا في أجازة، وليست ضمن الركاب.

-...

أكمَلَتْ خريجةُ المعلمين، دراستها بكلية التربية، وعُيِّنَتْ معلمة بمدرستها القديمة، ثم تزوجت قريبا لسعد، ممن يكفي خيرُهم شرَّهم، فاستغنيا معا عن معونة الأهل، واقْتصرت معظم خرجاتهما، على الزيارات العائلية المحدودة، مُجْبِرين الجميع على قبولهما هكذا، دون تأفف أواستنكار.

بينما تخطت البنت الثانية، مراحل تعليمها قفزا، فتخرجت من كلية الزراعة، سعيدة بمناداة والدها لها بالمهندسة، وهو بصدد محاولات جادة، لتوظيفها بالميناء أوبوزارة الزراعة.

أما البنتان الأخريان، فقد تخرجتا معا، بعد عدة أعوام، مع أنهما ليستا توأمتين، فقد كانت كبراهما بالصف السادس الابتدائي، وصغراهما بالخامس، لكن القرار المفاجيء بإلغاء السادس، هبط على المدارس كالقدر، فقذف بتلاميذ الصفين معا – ومن ثم بالبنتين -، إلى الأول الإعدادي، فيما عُرف بالدُّفعة المزدوجة، التي ظلت صداعا في رأس التعليم، حتى تخرج طلابها من الجامعة.

وبعد مدةٍ عاد القدَرُ، ليقذف بقرار آخر، على يد مسئول جديد، حَتَّمَ عودة الصف السادس، فأحدثَ واقعةً تعليميةً، تصلحُ لموسوعة طرائف وعجائب؛ إذ بات هناك صفٌّ دراسي، بلا تلاميذ

جدد، فتلاميذ الخامس حينئذ، انتقلوا إلى السادس بعد عودته، بدلا من انتقالهم إلى الأول الإعدادي، الذي سيبقى بلاتلاميذ جدد، بعد انتقال تلاميذه القدامى، إلى الثاني الإعدادي، وعندما انتقل تلاميذ السادس - في العام التالي -، إلى الأول الإعدادي، أصبح الثاني الإعدادي خاليا من الجدد، بعد انتقال تلاميذه القدامى إلى الثالث،...وهكذا دواليك بالثانوي، ثم بالجامعة!.

إنها سيرة الكوميديا السوداء، التي كلما وَرَدَ ذِكْرُها، رفع السفير يديه ضاحكا، وهو يكرر حكاية طريفة عن أخيه، الذي صار من أثرياء النجارة؛ وجاء ليشتري أرضه، حيث سبق رسوبه، بالصف الرابع الإعدادي الأزهري، لكن قرارا من إياهم، صدر بإلغاء الصف الرابع الأزهري، والاكتفاء بالثالث ختاما للمرحلة، - كالإعدادي العام -، فبات على أخيه هذا، أن يعيد الصف الثالث، بدلا من إعادة الصف الرابع المُلْغَى.

يكمل السفير حديثه، وصدرُه يوشِكُ أن ينفجر من الضحك: هل هناك أعجب من ذلك؟ الرجل رسب بالرابع، فجعله القرار الجديد يعيد الثالث، الذي سبق له اجتيازه!

واستمرارا لسخرية الظرف، عاد الأخ ليرسب بالصف الثالث، ويهجر التعليم تماما، ثم يولِّي وجهَه، صوبَ نجارة الموبيليا، التي لم تكن في الحسبان، لتنول حاله إلى حياة غير الحياة.

أثار فتح الرجل حافظة ذكرياته، على هذا النحو الساخر، حفيظة بناته، ليُفاجَأ بإحاطتهن بأمور عديدة، أغرب من تلك التي أثارت ضحكه، وبنشاطهن الواسع على (الإنترنت)، والتواصل مع أقرانهن، مشيرات إلى موضوعات جادة، تتعلق بالحريات، وسيطرة فئات بعينها، على مقدرات البلاد، و...

كما تفاجأ بتمكنهن، من إقناع أمهن برؤيتهن، ورؤية بعض المعارف، منهم أقارب لسعد والعزوني... وغيرهما.

-...

كان المجموع قد أجبر، أحد أبناء العزوني، على دخول المدرسة الثانوية الصناعية بالمدينة، فأصبح لسنوات ثلاث، أحد ركاب عربة أيمن، مثل كبرى بنات السفير، طالبة المعلمين آنذاك، فَوَقَرَ بداخله وقتَها، ضرورة ركوب الصعب، من أجل الارتباط بها، حيث ستبقى بالدراسة، لسنتين أخريين بعده، بحكم امتداد الدراسة بالمعلمين، لخمس سنوات لاثلاثة.

لكنه اصطدم بقيام فرصتها، في الالتحاق بكلية التربية بعد المعلمين، ولما فاتح أباه في الموضوع، دار أبوه هنا وهناك، حتى علم بخِطْبَتها لقريب سعد، الذي تزوجته عقب التخرج ثم التعيين.

لكن شَبَكَةَ والدِه، لم ترجع دون صيد، فأختها الثانية كانت موشكة وقتها، على دخول كلية الزراعة، وأمام البحث والتمحيص، لم يجد السفير مانعا، من الموافقة على خِطبتها للولد المحظوظ؛ الذي أسفر التحرّي عنه، عن شهادات بدماثته، وطموحه غير المحدود، إلى جانب عمله فنيا بهيئة الكهرباء، وحصوله أثناء العمل، على الثانوية العامة منزليا، رغبة في الارتقاء بمؤهله، ليتناسب مع عروس جامعية...، والأهم هو أن تلك النوعية الطموحة، يعشقها السفير كدبلوماسي، يستطيع تقدير المواقف.

ويأتي دور خالها مايكل، في إقناعها بالموافقة، ليكرر الزمن نفسه، ومن الأم لابنتها قُلْ يا كريم؛ فقد سبق له إقناع أمها، لتوافق على زوجها، قبل أن يصبح سفيرا شهيرا، ثم إن بناتها جميعا، وُلِدنَ على يديه كما يُقال، وتبقى لكلمته لديهن قيمتها.

أما ما يمكن اعتباره مصادفة نادرة؛ إن العزوني نفسه، بوصفه صديقا مشتركا، لمايكل وابن عمه أيمن، جاء شاهدا على الزواج في المرتين، رغم الفارق الزمني بينهما.

لم يكن العزوني يعلم إلامتأخرا، بنجاح ابنه في الثانوية، والتحاقه بكلية الهندسة قسم كهرباء، بعد حصوله على أجازة من العمل، كان يقوم خلالها، بعمل تركيبات كهربائية، لبيوت أهلية وعمارات حديثة، مقابل أجور عالية، حتى أتم دراسته، وعاد إلى عمله، قبل إتمام مراسم زواجه.

وإلى جانب تواصُله، مع شباب (الفيس بوك)، دَفَعَه الطُّمُوح، إلى نشر مشروعاته في هندسة الكهرباء، على الشبكة العنكبوتية، فحصل بموجبها إلكترونيا، على شهادة خبرة من دولة أوربية، كان صهره سفيرا بها لبضع سنوات، ومن ثم ساعده، في التعاقد معها، بعد اجتياز مقابلة شخصية، أُجْرِيَت بسفارتها في القاهرة.

تزامَن تعاقده هذا، مع ولادة ابنته الأولى، فكانت فألا حسنا عليه، وبات على مايكل ثانيةً، المساهمة في إقناع أخته وابنتها، كي توافقا على سفر امرأته معه، لتظل في ظهره، حتى يحقق طموحه، والخير في النهاية، سيئول لها ولذريتها منه.

لكن الغُربة لاتُهادِن، واختلاف اللغة ليس شيئا هيِّنا، وعملُ الزوجِ طوال اليومِ مُهلِكٌ، وتَرْكِه القَسْرِيّ لامرأته وابنتها، دون أنيس أوجليس، مع غياب المشاعر الإنسانية، ومعاني الجيرة والصداقة، زاد الحياة برودة، و...

كانت موافقة السفير ومايكل، على إتمام تلك الزيجة، ثم رفضهما لاحقا، لارتباط إحدى البنتين الباقيتين لابن الخطيب،

أضافت سببا جديدا، لهجوم خميس وبطانته عليهما، خصوصا السفير، الذي رموه بالبخل، وعدم التبرع لهم، كي يكملوا رسالتهم، بصيانة زوايا الصلاة، وكفالة المحتاجين – على زعمهم -، متهمينه بمنع الزكاة، على نتاج أرضه الموروثة، مُحَقِّرين في الوقت ذاته من العزوني، ومن ابنه المهندس، الذي سافر مصطحبا حُرْمَته، إلى بلاد الفِتنة وإهمال الدين.

على هذا دأبَ خميس، وفي عينيه تسكن لمعة الاستقواء، فلايتورَّع عن الجهر، تصريحا أوتلميحا باشتداد شكيمته، وعلو قامته بين مريديه، كما انتشرت فتاوى أمثاله بالفضائيات، في ظل أجواء آيلة للسقوط، وأناس يهملون عقولهم.

قال العزوني للسفير معاتبا:

لم يجترىء خميس هكذا، إلا لعدم استعانتك أنت وأمثالك، بمعارفكم ونفوذ مناصبكم، لإيقافه عند حده، هو والخطيب لسانه فوق المنبر.

قال مايكل:

بغض النظر عن اختلافي أواتفاقي، مع منطق كهذا، فإنني لاأستطيع، إنكار تأثيرة الكبير على الكثيرين، بشكل أوبآخر، أنا مثلا لاأنكر دور خُطَبةٍ له، في إتمام زيارتي لأختي.

علق السفير ضاحكا:

احمد ربك ياعزوني، أنني لم أعد صاحب منصب، وإلاما كنت معكما الآن، بلا معارف بلا غيره، بصراحة أنا حابب أنضم للبنات، فيما انتوين المشاركة فيه.

- لكن يا جناب السف...

- دعك من الكلام، مشكلة خميس وبعض أمثاله، تكمن في

عدم تنبه البعض، للانفصام القائم بين أقوالهم وأفعالهم، وكأن قول الله تعالى في سورة الصف:''كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاتَفْعَلُونَ''، لم يمر عليهم.

يُكمل مستغربا:

أين المشكلة، في رفض أي شخص، يتقدم لابنةٍ من البنات؟

أنا لاأدري والله، كيف يديرون الأمور، المصاهرة محكومة بالاتفاق، كان على الشيخ أولا، البحث عن أسباب الرفض، بدلا من الغضب المُغَلَّف بالهجوم، عشرات الأساتذة والمشايخ قبله، تعلمنا على أيديهم، ومئات منهم بل آلاف، كانوا ولايزالون أمثلة للقدوة، وحسن أداء الدعوة قولا وعملا، وأنا نَفسي لَدَيَّ أصدقاء منهم، تأتي الدعوة في طليعة اهتماماتهم، ولاأتردد أبدا في استشارتهم، والتزود بآرائهم.

هل جاء رفضنا لابنه، لأنه ابن خطيب والسلام، أوابن ملتحٍ - كما يدّعِي -؟!

- أكيد لا...

ماذا نقول عن العزوني إذن، وهو صديق وصهر قديم؟

كان كل من السفير ومايكل، قد أكبرا العزوني، لأنه لم يقم الدنيا أويقعدها، عندما رفضَتْ إحدى البنتين، الارتباط بابنه المُعلم. حتى ابنه المهندس، وزوج أختها في نفس الوقت، لم يُبْدِ لوما أواستهجانا، لرفضها طلب أخيه، صحيح أن أختها امرأته، لديها متاعب معه في الغُربة، لكن ابنتهما الصغيرة، تجمع بين الأسرتين، ولابد من التحمُّل، والحال على جانب واحد لاتدوم.

ولولا وساطة العزوني - رغم الرفض -، ما أمكن للسفير، شراء قطعة أرض من جاره سعد، بدلا من شراء قطعة الخطيب،

الذي امتنع العزوني، عن شرائها ذات مرة، حيث ينتوي السفير إقامة بيت عليها، يُخصص فيه دَورا لكل بنت، فيسهل تواصلهن معا، في أي وقت بعد زواجهن جميعا، فيما سيبقى هو وامرأته، بشقتهم القديمة حتى انتهاء الأجل.

كما صمم العزوني، على اصطحاب السفير، لخِطبة ابنه المُعلم المرفوض، على إحدى زميلاته المعلمات، سليلة إحدى الأسر الثرية.

بغض النظر عن سرعة إظهار تَكَبُّرها عليه، مُعَيِّرَةً إياه بتواضع مستواه، وأن ارتباطها به، يُعَدّ مغامرة غير محسوبة، ثم نَاولَتْهُ صُرَّة قماشية، معقودة على هداياه البسيطة، مع دبلته الذهبية الخفيفة، مُحذِّرة إياه بشدة، من ذِكْرِ اسمها بلسانه، وإلا أرسلَتْ له، مَن يعيد تأديبه.

ولم تنجح بعد ذلك، خبرة العزوني ومَشُورَة السفير، الابصعوبة، في تبديد ما أصاب الابن، من عُقدةِ الزواج، بسبب تعرُّضه للرفض مرتين، مع اختلاف الطريقة في كل منهما، ليتم أخيرا زواجه، بإحدى بنات شارعهم، من متوسطات التعليم، ثم يُرْزَق منها ببنت وولد، في عامين متتاليين، لم يزد راتبه فيهما، إلاجنيهات معدودة، حتى لاحت في الأفق بوادر الحاجة.

ومثلما نجحت مساهمة السفير، في تعاقد زوج ابنته المهندس خارجيا، نجحت أيضا، في تعاقد أخيه هذا، للتدريس بإحدى مدارس طرابلس الليبية، وجرت سريعا عدة إجراءات، صار بعدها مع أسرته، بِدُنْيا غير الدنيا، وبين بشر غير البشر، لكن الشعور بالغربة أصابه، ولم يخفف منه، سوى تعدد الأسر المصرية بطرابلس، واندماجه معها في أَتُون التزاور، وتبادل دعوات الغذاء، وحفلات إفطار رمضان، حتى تفاجأ في إحداها، بلقاء أخي

خطيبته السابقة، صاحبة الصُّرَّة المردودة، حيث تعاقدا أيضا، للتدريس بنفس المدينة.

عامان آخران مرَّا، رزَقَه الله خلالهما بطفل ثالث، امتلأ بدنه بطفح جِلْدِيّ نادر، أشار الأطباء باستحالة شفائه، إلابالنزول إلى مصر، لزوم تغيير الجو.

أخبره أخو خطيبته السابقة، بأنها لم تتعاقد رَغْبَةً في المال، بل لعزوف الخُطَّاب عنها، خشية نوالهم نفس مصيره، من الطرد والمهانة.

ولاأحد يعرف بالدِّقة، كيفية تغاضى قلبه، عن أسباب المهانة، حتى يمارس لعبة التحايل، ويعيد التقارب معها، ثم تجري وقائع عشوائية، تنتهي سريعا بالزواج، الذي لم تمنعه مُعَارَضَةُ أخيها، فعجَّل بإنهاء تعاقده، وعاد غير آسف على فراقهما.

لم تتأفف زوجته الأولى، رغم غضب أهلها، فيما قال العزوني ضاحكا:-

وماله، ربنا يزيد العيال، والعيال تود العيال، وكلها صلة رحم، ثم ردد جزءا من حديث أخرجه الترمذي، حفظه من تكرار والده له: '' تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، ...''.

بينه وبين صهره السفير، تستعيد ذاكرة العزوني كثيرا من الوقائع، مُطْلِقا الضحكات، التي تقْلِبه على قفاه، وتطْفَر الدموع بعينيه، فتعيد عليه ذِكْرَى ابنتة المرحومة، ويُطلق صدرُه تنهيدة ممطوطة، مرددا إحدى مقولات السفير، الذي يطلقها ردا، على خِلْفَتِه عديمة الأولاد:

الأولاد عصافير طائرة، تعشش فوق أي غصن، أما البنات فيعششن حانيات، حتى لو تزوجن، تدور دائرتهن مهما تدور،

لكنها تعُود بهن، ليدفنن أحضان الأباء والأمهات، أويستدفئن بها، ويوصين أيضا بأن يُدْفَنَّ، في قبور الأهل بعد الممات.
هييه الله يرحمك يا ...
ثم تتراقص صورةُ الدنيا أمام عينيه.
لقد تَبَرْجَلَ عقلُه، وبهتتْ بداخله دائرةُ الحيرة، بعد إثبات الطب الشرعي، أن المعلم المصروع محل الشك، عاش مُخَنَّسا لايُعرَف له جِنْسٌ.
لكنه كوالد للفقيدة، لم يُقِم عزاءً بعد، محاولا طمأنة نفسه، في السر والعلن، دون سَنَدٍ جادٍ، بأنه مُلْتَقٍ بقاتليها لامحالة، لينالَ ثأرَه منهم، عندها فقط، يمكنه إقامة عزاء طَنان رنان، أوحتى فرح.
يمصمص الناسُ شفاههم، قائلين:
يعطينا ويعطيك العمر.
فهو في رأيهم، بحاجة إلى معجزة، تشبه معجزة أخت أيمن، المتزوجة بالكفر؛ إذ ظلت خمسة عشر عاما قبل الزواج، مشلولة الذراع اليمنى، وحار الأطباء فيها، معتقدين استحالة عودة الحياة بها، لكنها ذات شتاء مُوحِل، انزلقتْ لَصْقَ جدارِ البيت، محل الإرث والخلاف، فسقطت فوق ذراعها المشلولة، وإذ بِوَتَدٍ مُدَبَّب، خُصِّصَ لربط البهيمة بالشارع، ينغرسُ بالمفصل الساكن طويلا، فانبجس الدمُ منه، وتَفاجَأ المجتمعون بحركته، ليظل لغزا مُحيرا، لكلِّ مَن فحصه من الأطباء.
فهل تمنحُ المعجزاتُ العزوني، إحدى تجلياتها غير المعقولة، ليكشف بعد سبعة عشر عاما، تفاصيلَ فاجعةِ ابنته؟

يحكِي السفيرُ الحكاية بعد أختها، عن غريب الأحداث المشابهة، يقول:

تلزم العزوني معجزة، أومصادفة عشوائية، لاتخضع لأي منطق.

يفتح العزوني فمه، وعيناه تبحلقان في المتحدِّث، وَلَعَاً بالاستماع.
تتسع الابتسامةُ في وجه الحَكَّاءِ، وهو يسردُ حكايةَ رَجُلٍ، سقط من الدور السادس، فوق سُرادقِ عزاءٍ بالشارع، وإذ بالسرادق ينكفيءُ فوق المُعَزِّين، ليموت أحدُهم عشوائيا ويُصاب آخر، أما الساقطُ من الأعالي، المُرَشَّحُ للموتِ منطقيا، فقد بقى حيَّاً، وإن كان لم يسلم - وهذا أيضا خَبْطُ عَشَواءٍ -، من اتهام أهل الميت له، بتهمة القتل الخطأ!
وها هي أرض سعد حسني، هل كان يتصور، هو أوأحدُ جدودِه السابقين، تنازل مايكل الأكبر عنها؟
بالطبع لا، حتى ولو كان المقابل، خدمة إحدى أخوات جد قديم، في دار صاحب الأرض، أو مقابل السماح لها بالرحيل معهم، لتظل في خدمتهم.
والأكثرُ مصادفةٍ، هو وقوعُ تلك الأرض، دون تخطيط طبعا، في كردون المباني، لتنقلب حياته وحياة أمثاله، رأسا على عقب، فالأفدنةُ المجاورة لها، مِلْكٌ أصحابها منذ القِدَم، لكنها لم تقع موقعها من الكردون، أليس هذا خَبْطُ عَشْواءٍ؟!
وهاهو سعد، ومن ثمن أرض المباني، يشترى فدانين مجاورين، يقوم على زراعتهما، إلى جانب زراعة أرض السفير.

بعد توطيد الصلةِ بينهما، دُفِعَ بالسفيرُ دفعا، إلى أتونِ مشكلات سعد، فنجح في الإصلاح بينه وبين أخواته، مُعيدا مياه الوصالِ إلى قنواتها، فيما أصاب التعثُّرُ، بدايات جهوده في التسوية، بينه وبين

أخيه، الباقي على قيد الحياة، بعد وفاة أخيهما الأول بالمستشفى، عقب واقعة المفصل الصناعي المعروفة، حيث اختلفا حول نصيب كل منهما، من ثمن الأرض، المُباعة بموجب توكيلات الورثة له، لكن حمامة السفير لم تتوقف، عن الطيران بين دارَيّ الأخوين، ولن تتوقف...

عند أول مرةٍ، دخلَ السفير بيت سعد الجديد، مصطحبا صهره مايكل، فاجأتهما مساحةُ الفراغ، وبرودةُ جدران الأسمنت، بينما تصفر الريحُ، في امتداد الحجرات والردهات، وغُبَارٌ كثيف يكسو أثاثه الثمين، قليل الاستعمال، فيما كان البيت القديم قبل هَدْمِه، يغُصُّ بأخواته وأولادهن وأزواجهن، يأكلون ما تيسر من خُضرة الغيط، والخبز بالمش البيتي، خاتِمِينَ بالشاي أوالحلبة، قبل العودة إلى دورهم، مُطْلِقين الضحكات الصافية، بقلوب شَحَنَها الوِصال، بالدفء والحُنو.

ربما كان على خميس ورفاقه، الاضطلاع بأدوار ما، في مثل هاتيك الأحوال، بعدما وضعوا أنفسهم بأنفسهم، في خانات المصلحين والأتقياء، بدلا من التدقيق في تفاصيل بحيوات الخلق، لاتهم أحدا سواهم، ومنها أسماؤهم، التي لاذنب لهم في اختيارها، هذا كأبسط مثال.

وها هو مايكل، رغم اسمه محل اعتراضهم، لايتأخر عن هدم جسور القطيعة بين الأهل، كما أنه لايزال، يُوْسِعُ نفسَه نَدَمَاً، على مُدَاهَمَةِ النوم له، لإبعاده عن صلاتين متتاليتين للجمعة، وها هو أيضا، لم يقف من الخطيب، موقف المقاطعة أوالعداء، بل التقط من خطبته، المدججة بالتهديد والوعيد، ما حفّز هِمَّته، على وصل أخواته.

بمجرد فتح أخته للباب، استِجَابَةً لدَقِّ الجَرَس، مالت برأسها الملفوف بطرحة سمراء، يظهر من تحتها إيشاربٌ أحمر، قالت بفرحٍ ظاهرٍ:

فعلاً (خالكم) مايكل يابنات.

أكملتْ وهي تغلق الباب خلفهما، مُلْقِيَةً بالطرحة جانبا:

سبحانك يارب، كنا في انتظارك والله.

- ...

- من أول الليل وهذا إحساسنا، حتى حَرَكَة خطواتِك، على دَرَج السّلّم، خَمّنَّا أنها لك.

- دفعت الكلمات بالبهجة إلى صدره، وهو يسلم على زوج أخته، الواقف في انتظاره، قال باسما:

الحمد لله، القلوب عند بعضها، والبركة في الخطيب.

- نعم؟

- لا، ولاحاجة، المهم طمئنوني عليكم، وعلى البنات.

- أنا وزوج أختِك، زي ما أنت شايف،...بُمْب، لكن البنت المسافرة مع ابن العزوني...، يعني...

- أضافتْ ضاحكة:

بالحق مبارك يا عم.

سمِعنا الخبر في الإذاعة، وفرحنا آخر فرح.

- أسْرَعَتْ كبرى البنتين، قادمةً من الداخل مُقَبِّلَةً يده، ثم أمَّنَتْ على كلام الأم، قائلة:

- طول عمرك مطوّل رقابنا ياخال، مليون مبروك.

- مبروك ولا مبارك؟

- لأ، خلينا في مبروك أحسن.

- ها ها ها.

- خرجت الثانية من حجرةٍ جانبية، وهي تهلل:

فرَّحونا ياجماعة، مبروك على أي شيء بالضبط؟ هو خالي تزوج على عمتي، ولا... ؟

- قاطعتها أمها مازحة:

اخرسي يا بنت، ربنا يخلي عمتك، كتاب خالك الأخير، فاز في مسابقة شهيرة، وجاري إعادة نشره في سلسلة عريقة.

- اللهُ أكبر، بالتوفيق دوما يا بابا.

- علقتْ البنت الأولى:

بابا؟

- طبعا، الخال والد يابنتي.

- الأولى مؤكِّدة:

فعلا خالنا والد بجد يابنت، ويمكن أعز.

أضافت وهي تنظر إلى والدها:

وأنت لاتزعل يا بابا.

- عمري ما أزعل يا عبيطة، علاوة على أنه زوج أختي، هو فعلا والد، وأكثر من والد، وأنا طبعا سبقتُكم جميعا وباركت له.

- رسم مايكل ابتسامة المنتشين، قائلا:

حيلكم حيلكم...

عموما الله يبارك فيكم، ورغم أنكم لم تخوضوا، في سيرة المكافأة المالية، إلا أنني لن أحرمكم، من حلاوة الفوز.

تضاحَكَ الجميع، استعدادا لاستئناف سَمْت الزيارة المُفتَرَض.

عاد ليسأل:

مالها البنت المسافرة، ابن العزوني ولد طيب، لكن جِدِّيَّتة زايدة حبتين؟.

حاول والدها التخفيف، قائلا:
اطمئن يا عم، أنت عارف صعوبة الغربة، حتى على الرجال، وزوجها أيضا معذور.
- يعني هي بخير؟
- بخير إن شاء الله.
قدمتْ له الصغرى، كوباً من النعناع.
لَمْلَمَ ساقيه مربعهما فوق الفوتيه، وهو يرشف رشفة محدودة، تحسُّبا لسخونة المشروب.
- سألت البنت الواقفة لاتزال، في انتظار النتيجة:
ما رأيك في نعناعي؟
- تمام، تسلم يدك يا آخر العنقود.
- آخر العنقود سكر (أيه) ياخال؟.
- سكر مضبوط يا...
- يا (أيه)؟
- يا جميلة.
- ها ها ها.
أمسكَ بالريموت، محوّلا مؤشر التليفزيون، عن مسرحية لفؤاد المهندس وشيريهان، ليتابع أواخر الشوط الثاني، من مباراة إنبي ووادي دجلة.
بمجرد العثور على القناة، استقبلت شباك الأخير هدفاً ثانياً، ليخرج في النهاية مهزوماً أيضا، للمباراة الثالثة على التوالي.
قال في نفسه:
لايمكن أن تفوتني، الجمعة الثالثة على التوالي، مهما كان الأمر.

عاد ليدير مؤشر التلفزيون هنا وهناك، اعتاد على انتشار برامج الفتوى، وكثرة ذوي اللِّحَى الكثة بالقنوات، لفَتَ انتباهَه إحاطَةَ أخته بأسمائهم، وأسماءِ برامِجِهم بتوقيتاتها، وبدا أنها على وشك الانتقال، للحديث عن محتواها، قال زوجها:

منذ حصلتْ مثل زوجتك، على الأجازة من التدريس، وهؤلاء شُغلها الشاغل.

رد مايكل مازحا:

وماله يا عم، كَلِّمْ لنا أحد معارفك، يمكن يشغلها في أحد البرامج.

أضاف السفير ضاحكا:

إلى جانب برامج الطبخ طبعا.

رد مايكل متصنعا الضحك:

عال عال.

وسط هذا التضاحك، توقف المؤشر عند نشرة للأخبار: نجاح الأمن في السيطرة، على تظاهرة حاشدة، لعمال الغزل والنسيج بالمحلة، وأنباء عن سقوط جرحى.

بدا انتباهُ البنتين للخبر مُلفتا، قبل اتخاذهما جانبا، وهما تتهامسان بحوارٍ حول الشباب، الذي مات تعذيبا بمركز للشرطة، بمدينة الأسكندرية.

راح الكلام وجاء.

- تدخل السفير، عازما عليه، بحفنة من الفول السوداني.

- أشارت يد مايكل، بإشارة عدم الرغبة.

- ليتك تَبْقَى معنا أطول وقت، ربما تمكنتَ من محادثة، ابنتنا المسافرة على (النت)، لتهديء من سِرّها قليلا.

أفرجَ عن تنهيدة عميقة، أكملَ:

حَرصنا على إدخال (النت)، من أجل هذا الغرض، قبل أن تُدْمِن هاتان البنتان العفريتتان (الفيس والتويتر) وغيرهما، وتكوّنان جيشا من الأصدقاء والصديقات، الممتلئة عقولهم بأفكار، ممكن تقلب الدنيا.

- لاتقلق فأنا أحد المتواصلين على (النت)، ومن أكثر المتابعين لهن ولأصدقائهن، ومعجب بكثير من أفكارهم، وأنادي ببعضها في محاضراتي، ولكن أين أنت ياجناب السفير، من كل هذا؟

- أنا يا خال البنات، كما قلت بعظمة لسانك:

سفير... وسابق كما تعلم.

يعني لفَّتْ الدنيا بي، على جنسياتٍ وبُلدان مختلفة، وأحاطني العِلْمُ بحق أي إنسان، في امتلاك أفكاره، وممارسة ما يراه مناسبا بحرية، مالم يضر بعقيدة أووطن أومواطن.

- يعني كيف تتواصل مع هاتين العفريتتين؟

- بالحوار...

- يعني؟

- استمعُ لآرائهما، ونتناقش.

- مثل ماذا؟

- مثل رأيهما الخاص، في مسألة موت ابن العزوني، الذي صدمته عربة الضابط.

- وما هو؟

- أفضل أن تسمعه منهما بنفسك، خليني أكمل أولا...

-...

- فالدولة مثلا منحت والده تعويضا، لكنه مصمم على أن ابنه شهيد، وأن ما أخذه منحة الشهادة، فيما يتأرجح رأي خميس

والخطيب ومن معهما، على حسب الظروف، فمرة يرونه شهيدا، ومرة يجزمون بأنه مجرد قتيل...، فما رأيك أنت؟

- أنا أرى النتيجة واحدة، فالحقيقة الدامغة، أن الولد فَقَد حياته، لكن الله وحده، هو العالم إن كان شهيدا أم لا.

قفزت كبرى البنتين قائلة:

ابن العم عزوني استشهد، وهو يعبر عن رفض الظلم، مثلما استشهد الشاب الأسكندراني.

- نظر السفير إلى مايكل قائلا:

- سمعت يا خال؟

وقبل مبادرة الثانية بالكلام، رفع كفه قُبَالَةَ فمه، في إشارة إلى توقف النقاش ولو مؤقتا، صاح:

الحقونا بشوية فاكهة، أوكوبين من العصير.

لمح الابتسامة على وجه حُرْمَته المندهشة، من امتثال البنتين للأمر بسهولة، على عكس طبيعتهما في الفترة الأخيرة.

عاجَلَها مايكل، برفع يده مُلَوِّحَا، كأنه يوقظها من النوم:

مساء الخير يا أختي.

فردت ضاحكة:

مساء النور يا مُبدع، أختك صاحية بالتأكيد.

-...

تطرق الحديث، إلى جنازة اليوم، وإلى العزاء،...، وإلى موضوع بيت العم، الذي غَنَّى فيه الشاعر – حسب العبارة الشهيرة -، والذي فقد اثنين بالوفاة، ربما قَلَبَا الوضعَ كلَّه، إذا أَمَدَّ الله في عمريهما:

أولهما السلاب والد مازن، الذي اغتاب عمه أيمن، ومن بعده مايكل وابن خالته، لمجرد مخالفتهم لإرادته غير العادلة،

بخصوص التقسيم، متناسيا كفاح والده بالغُرْبة، لتوفير ما يقيم أَوَدَهم، قبل عودته معلولا، وبقائه بالفراش، حتى قابل ربا كريما.
وثانيهما حامد، الذي جرَّب السفر، بشكل أقل من أخيه، لكن الأجل أيضا لم يمهله، فأصاب رأسه عَطَبٌ داخليّ، لم تُجْدِ معه أيَّة عمليات، فغادر دنيا الأحياء صابرا صامتا، وطبعا دون نسيان أخيهما التلميذ، الذي سبقهما بالرحيل صغيرا، عقب رَكْلَةِ المعلمِ الشهيرة.

نماذج لحالات مرضية متكررة، لاتفرق بين جنس وجنس، أو كبير وصغير، يرى بنات السفير ورفاقُهن، مايراه بعض أساتذة الجامعة، بأنها نتاج القمح الفاسد، وقائمة المُسَرْطنات المستوردة، بلاضابط أومراقب، فيما يرى خميس وأمثاله، أن العِلَّةَ ليست في المستوردات نفسها، بل في جَلْبِها، من بلاد الكفر والإلحاد.

وتبقى الحقيقة الدامغة، أمام تَغَوُّلِ الفقرِ، وانعدام الرعاية الصحية؛ وهي استمرار حصد الأرواح، ورحيل الأبدان، مختلفة الأعمار والأحجام، لتعمر القبور، يقابلة تفريغ للبيوت، يعوضه ويزيد قدوم غير محسوب للمواليد، جريا على نظرية؛ كل امتلاء حتما يقابله خواء، وكل خواء حتما يقابله امتلاء، هذه سُنَّة حياة، سَنَّها خالقُ الكون، ومن المُسَرْطَنِين إلى المبطونِين، لايغادر الحزنُ قلبا، والموت واحد في النهاية، مهما تعددت أسبابُه.

من حجرةٍ مجاورة، نادتْ إحدى البنتين:

هاهي الفرصةً يا خال، لتُحادِث ابنة أختك ساكنة أوربا.

قبل أن يتأهب للدخول، عاجَلَتْه البنتُ آسفةً، لانقطاع (الإنترنت)، قالت ضاحكة:

لاتقلق ياخال، ينقطع قصيرا، ليعود طويلا.

ألقَتْ أختُه بقَسَم مُغَلَّظ، كي يتناول شيئاً من السوداني، المحمص بَيْتِيَّاً على يديها.
شاركها الباقون القَسَم، ولم تُفِدْ معهم أيَّةُ أعذارٍ، غير مُقَدِّرِين أبداً، حَجْمَ ما تُعانيه أسنانُه، عقب تناولِ أي شيء صلب، أوشبيه بالصلب، لكنه في النهاية، لم يُرِدْ كسر خاطرها بالرفض، فإلى جانب كونها الصغرى، دأبت على اعتباره والدها، بعد وفاة والدهم في طفولتها، لاتنافسها لديه مكانةً، سوى صغرى خالاته، التي لم يساورْه التَّرَدُّدُ يوما، في اعتبارها أمّهُ الثانية، ربما لأنها لم تُرْزَق بأطفال، دون عيب بها أوبزوجها، كما أكد المختصون.
تلك الخالة التي ظلت، تملأ الدنيا بابتسامتها المضيئة، منذ في آخر مرة انفتح فيها، موضوع الخِلفة أمامه، عندما كان صغيرا لايزال، يومها تكرر اسم الله على لسانها، قبل أن تقول: إنها المشيئةُ التي إذا حلَّتْ، فلا راد لها إلابإذنه.
فأَمّن زوجُها حافظ القرآن مؤكدا، إنه وحده القادر، على منح هِباته من الذُّرِّيَّةِ للخلق، إناثا أوذكورا أومن الجنسين، وقد يجعل البعض عقيما بلا ذُرية.
ومع صِغَرِه رد مايكل ضاحكا، ليخرج من الحالة:
سبق وأكدت بأنني (ابنكم أنتم)...، هييه (ابنكم) ولاَّ لأ؟.
- ابننا وأعز من ابننا.
- تمااام.
مد يده إلى منضدة الصالون، فتح علبةً وسطها، ممسكا بحبتي شيكولاتة مغلفتين بورقٍ مُذَهَّب، ثم ألقي لكل منهما بواحدة، قبل أن يخصَّ نفسَه بالثالثة، وسط التضاحُك والتدليل، الذي تعاظَم حظُّه منه، كما تعاظَمَ حظُّه في عددِ عمَّاتِه وخالاته.

حيث لديه من العمات، ستٌ غير شقيقات، وواحدة شقيقة، ركب والدهن التصميم، على عدم تزويجهن غريبات، خطفتْ كبراهنَّ مَيْتَةٌ طبيعيةٌ، وصَعَقَ آخِرَهن، سِلْكٌ مُهمَل مكهرَب، وهي تنشر غسيلَها فوق السطح.

اجتمعن على احتضانه، كما اجتمعن من قبل، على احتضان والده، أكثر من أخويه الكبيرين غير الشقيقين (ساكن البيت القديم. وأخيه والد أيمن شبيه ''كونتا كنتي'').

وكان جد مايكل لأبيه، قد توفي وابنه – والد حفيده مايكل -، قي سن الخامسة، تاركا إياه مع أمه الشابة وأخته - صغرى عمات الحفيد -، فراح اليتيم الصغير، يتنقل بين الأعمال الصغيرة، ليكفل أمه الأرملة وأخته، وبات ثلاثتهم في حاجة، إلى أحضان أخواته الكبريات المستورات – عمات مايكل لاحقا -، حتى لو كن غير شقيقات، كما بات محافظا على ارتباطه بهن، حتى آخر حياته القصيرة، مورثا الراية لابنه مايكل، ليبادل عماته عطاءً بعطاء، وحبا بحُب، فلم يفوّت الوريثُ - حامل الراية الجديد - مناسبةً، إلا واستغلها في زيارتهن، مُقَبِّلاً أيديهن، مستأنسا بأمنياتهن له بطول العمر، ولأبيه بالرحمة، يذهب بشيء يسير، من الحلوى وفاكهة الموسم، مُثقل الكاهل بالهموم، فيعود من عندهن خالي البال، يلفه الرضا وتسكنه الطمأنينة، مُزَوَّدَا بذخيرةٍ من دعواتهن، تدفعه إلى مواصلة الحياة، التي لم تمنحه بعد، فرصة لالتقاط الأنفاس، فيلهجُ قلبُه بالدعاء لهن، كلما وردتْ سيرةُ الراحلاتِ منهن أوالباقيات.

كما تخلَّقَ لديه نظامٌ آليّ، لاحتواء أخواته، رغم خصوصية صغراهن، صاحبة الزيارة الأخيرة، التي سبق واختار لها، كأخ تَلَبَّسَ دور الأب، هذا السفير الجالس أمامه، وهو لايزال خريجا جامعيا حديثا، سَمْحَ الوجهِ ناصعَ القلب، ليكون زوجا لها،

ويرزقهما الرزاق ببنات أربع، كحبات الفاكهة متنوعة الألوان والمذاقات، يساعده في تنفيذ نظامِه الآلي، تقليد أمهن بالزواج في القرية - خلافا لكل شقيقاتها -، ففي ساعة زمن، يستطيع وصلهن جميعا، كما يمكن للوصل أن يمتد، ليشمل المتزوجات من بناتهن، وقتما يستوجب الظرف.

فوصيةُ أمه له بأخواته – وهي على فراش الموت - واجبة النفاذ، وكذلك بخالاته الباقيات، رغم كبرهن عنها في السن، وبلوغ عددهن إلى تسع بالتمام والكمال، حتى سُميت أمهن بأم البنات.

يدور طائرُ اَلذِّكْرَى بمايكل، ليحُطَّ عند أبيه، الذي لحقَهُ اليُتْمُ صغيرا، وعاش عمرا قصيرا، لايُقِيمُ فيه وَزْنَاً، للتكالُبِ على الدنيا، غير عابيء باختلاف الآخرين معه، يقول الأب قبل رحيله، كلاما محفوظا مُدعَمَاً بالشواهد، وكأنه حكيم:

المرءُ غَنِيٌّ بذَوِيه، وحِكْمَةُ الخالق لايدركها مخلوق، وعائلتُنا يابني، كثيرة البنات قليلة الأولاد، لماذا؟

يكمل: العلم عنده وحده، ربما لأن عِلْمَه واصِلٌ، بأن أرواحَنا مُعَلَّقَةٌ بنسائنا، نستوصي بهن خيرا، آباءً عن أجدادِ الأجدادِ، حريصين ألايقعن في خَطَرٍ أوفِتْنَةٍ، داخل البيوت أوخارجها.

تسود لحظات تأمل ربما.

يكمل أبوه مؤكدا:-

النساءُ يا ولدي شقائق الرجال، وإكرامُهن دليلٌ للكرم، وإهانتُهن من طِبَاعِ اللَّئَام.

ودون انتظار رد، يسترسل قائلا:

انظر إلى عائلة فلان - يُسَمّي عائلةً -، أيعجبُكَ تَرْكَ بناتها، لِلدوران بالغيطان والقنوات، والخدمة في البيوت، رغم يَسَار الحال، وكثرة المال؟

- تهتز رأسُ مايكل، بعلامة عدم الرضا.

- والجميلات منهن يتزوجن برجال خميس، بلا تجهيز أوتمحيص.

-...

- وانظر إلى عائلة فلان - يُسَمِّي عائلةً أخرى -، أيعجبُك سَهَرُ بناتها، للعمل بمحلات الحلوى، ومعارض الموبيليا بالمدن، وأيضا دون حاجة، مما يُعرِّضُ بعضهن، لمواقف عصيبة، يتم اكتشافُ أثرها ليلة زواجهن؟

- أبدا أبدا.

يتردد الكلام برأس الابن، كصفير إناء فخاري، تضربه عاصفة هوائية، فيتَلَبَّسَهُ التصميمُ، على اتِّبَاع نهج أسلافه، بعدم التقصير في حقِّهن، وعلى فلسفةِ أبيه وجَدّه لأبيه يسير؛ إذ لم يزوجا عماته أوأخواته غريبات، وإن امتد العمر بابنته المتوفاة، لصنع معها صنيعهما.

أما فلسفة جده لأمه، فشابَها اختلافٌ جَوهَرِيّ، فباستثناء أمه المتزوجة بالقرية، تناثرت زيجات خالاته، بين بِقاعٍ متباعدة؛ من عزبة الخليج يساراً، إلى كفر سليمان يميناً، ومن مَحلة كوستا شرقاً، إلى عزبة عباس غرباً...،إلا أن أقدامَ مايكل، لم تَكْسَلْ أيضا، عن السَّعْي حثيثا إلى دُورِهِن، خصوصا خالته الأخيرة عديمة الذُّرِّيَّةِ، فاعتبرنه ابنا لهن أوأخا أصغر، يناديه بعض أولادهن الصغار بالخال.

ونافذةُ الذكرياتِ عريضةٌ، كلما فتحها صَعُبَ غَلْقُها، يستمد من حنينها مِدادا لحياته، ولمضمون محاضراته، علاوة على آراءٍ، جعلته في مَهَبِّ الاختلاف، مع مجموعات وأفراد، أباحوا لأنفسهم كلَّ مُتاح، دون اعتبارٍ للغير، ومع من تُفْتَرَض فيهم القدوة، لكن

ازدواجية الأقوال والأفعال، باتت متغلغلة في ضمائرهم، وخُطب الخطيبِ بليغةُ الترهيب، وعن مواقفه المُخْتَلَفِ عليها، يردد دوما: مالكم أنتم بأشواك الياسمين، عليكم بجني الزهر، وترك الأشواك لأصحابها.
ثم مالكم أنتم بأحوال الدين، دعوها لأصحاب العلم والمعرفة، مثل دكتورنا العالم خميس، ثم يُرَبِّتْ بكفه فوق صدره مُكملا:
ومثل العبد لله.
كيف تختارون لأنفسكم ولأبنائكم أسماءً، ما أنزل الله بها من سلطان، وتقولون حرية؟
كيف تقابلون ربَّكم باسم غراب، أوعقاب، أوحَمَّار، أو...، أومايكل، لم يعد ناقصا إلاحَنَّا وجرجس...، خَرَّبَ اللهُ بيوتكم.
يصل الكلام لمايكل، فيرسل رَدَّهُ قائلا:
أفتنا أيها الخطيب العالم، في أمر الاسمين عيسى وموسى.
لكنه ينتظر طويلا، دون أن يأتيه رد الخطيب.
فيتوقف عن مواصلة التعليق، فقط يستعيد قولا قديما لوالده، ينحطُّ بجوار أقوالٍ أخرى مشابهة:
مايكل يابني.
...-
- لايوجد بالدنيا خيرٌ كامل، أوشرٌّ كامل، فالحُكْمُ على الأشياء، يخضع لاعتبارات عديدة، قد تبدو غير محايدة، أوغير نافعة، وماعليك إلاّ تَحَرِّي الصدق، وصولا للخير وتحاشِيا للشر، وكثيرا ما يأتي الخير، من بعض الشر، كما يولد اليُسْرُ من رحم العُسْرِ.
والأسماء يا بُني لاتُعلَّل، فليس كل من اسمه (جميل) جميلا،

أو(نزيه) نزيها، وليس من اسمه (حلاج) حلج القطن، والحساب على الأعمال لاالأسماء.

داخِل ضميرِه يجدُ دوما، صدى لأقوال والده، المتكلم بلسان الحكماء، رغم اعتماده طيلة حياته، على قراءات اجتهادية، في كتب قديمة، وُجِدَتْ بصندوقِ جَدٍ قديم، احتفظ بها دون مساس، تَبَرُّكًا وإجلالا لصاحبها، علاوة على كتابات شَتَّى، واكَبَتْ عصرَه، مع خبراته بالخلق، كتاجر جَوَّاب للبلاد والدُّور، تعشق أذنُه حكايا الحكماء، وسِيَر الراحلين والعارفين.

يقول مايكل في نفسه:

رحمك الله يا أبي، ربما كنتَ من كبار العلماء، إذا ما طال العمر بك، وأُتِيْحَتْ لك فرصُ الدراسة.

ثم يعودُ لِوَعْي لحظاتِ الزيارة، رافعا صوته مخاطبا، إحدى بنات أخته:

إلا أنت ياجميلة.

- ترد البنت دهشة:

إلا أنا ماذا ياخال؟

- يقول جدّك المرحوم:

الأسماء لاتُعَلَّل، لكنك جميلة اسما وعِلَّة، أقصد وهيئة.

- ترفع البنت صوتها بالتهليل.

تتداخل أمها مُعَلِّقة:

لم يستوعب الخطيب إلى الآن، فكرة رفْضَنا لابنه كخطيبٍ لها، وعليك وعلى هذا الباشا - اشارت إلى زوجها -، سيداوم صَبَّ غضبه، كما أن ردكما عليه، سيُدخلنا معه ومع خميس، في معمعةٍ لاتنتهي.

أضافت، بلهجة بين الجَد والهزل:

خلُّونا نوصي عليه العِتر، وهو يخليه يتوب، توبة لاقبلها ولابعدها!

قال مايكل بنفس اللهجة:

في هذه الحال سنكون مُلزَمِين، بتحقيق رغبة العِتر، في الارتباط بها.

علق السفير ضاحكا:

ونكون خرجنا من حُفرة، لنسقط في دُحْديرة.

رفع مايكل صوته، جادا هذه المرة:

بعينه وعين أمثاله.

...

وبنات أخته جميعهن، وُلِدْن بين يديه كما يقولون، بداية من البكرية المعلمة، زوجة قريب سعد حسني، ومرورا بالثانية خريجة الزراعة، التي كان والدها يحاول، توظيفها بالميناء أوبوزارة الزراعة، قبل زواجها من ابن العزوني، جارًا إياها إلى أوربا، ثم انتهاءً بالبنتين الأخريين، اللتين حَفِيَتْ أقدامُ العِرسان، وألسنتُها من طلبهما، دون أن ينالوا الرضا.

- مالَ السفير على مايكل هامسا:

قلقي على البنتين هنا، أكبر من قلقي، على البنت المسافرة.

- ...

- المسألة زادت عن الحد، إنهما مع (النت) ليلا ونهارا.

- يمكن فيه عريس جديد أوعريسان.

- أبدا...، الموضوع فية كلام كثير، عن الحرية والعيش والعدالة، وحاجات كهذه.

- سبق وقلت لك ياصهري؛ أنا عارف ومتابع.

- فعلا، لكنني يامايكل، لم أتوقع أبدا، أن يصل وَعْيُهما أوفِكْرُهما، إلى هذا الحد.

- حاول مايكل تهوين الأمر، قال:

طول عمر الكلام دائر، عن الحرية والفساد والفقر و...، عليك بمراجعة كتبي ومحاضراتي لتتأكد، والكلام ياجناب السفير، ليس عليه جُمرك.

- والله باين عليك، ما أنت فاهم الموضوع بالكامل، الأمر هذه المرة باين عليه مختلف.

- خلي قلبك حديد يا رجل، وإن كان على (النت) و(الفيس) و...، فلاتقلق، هذا حال شباب اليوم، حتى نحن بتنا متورطين مثلهم أو معهم.

- أصل...

- ولا أصل ولا فصل، هل أخبرتك إحداهما بشيء؟

- طبعا.

- شيء مُخيف يعني؟

- قالت؛ إنهما تنسقان مع آخرين، لتظاهرة غير مسبوقة بعد أيام.

- وحتى هذا معروف، هل هناك من جديد؟

- ألا يُذَكّرك هذا بمظاهرات العمال 2008.

- بلى يُذَكِّرني، خصوصا أنها قامت تقريبا، استجابة لدعوة إحدى بنات (النت).

- و...

من داخل الحجرة، التقطتْ أذنُه حوارا متناثرا، توقَّع أنه لإحدى البنتين مع أختهما الغريبة، عَبْرَ الشبكة العنكبوتية، لحظات

وجاءه النداء:

(النت) رجع يا خال.

فَزَّ واقفا، ولسان حاله يقول:

لله درك أيتها التكنولوجيا، التي عَيَّشْتِ الأُسْرَةَ، مع ابنتها وحيدة السكن، في حوار بديل عن حوارها، مع طفلتها أومع نفسها، تأخذها نوبة الضحك مرة، ونوبات البكاء مرات، والأُسْرَةُ على بعد آلاف الأميال، شريك أصيل في هذه وتلك.

يأخذ العمل زوجها، طوال النهار وأول الليل، لايدرى - أوليست لديه الفرصة ليدري -، بما آلت إليه حالها، فيما يشبه الحبس الانفرادي، بسجن أبى زعبل المصري.

إنه الموت البطيء، والعمر المتفلِّت من بين اليدين، دون مردود يستحق، وتحديدا إذا تَنَحَّى جانبا، البُعْدُ الإنساني بين رجل وامرأته، فإعدادُ الطعام والملابس، لايصح أن يكون سببا وحيدا، يستوجب ضياع العمر، واقتناء الملابس، والطعام الجاهز بتلك البلاد، أمر يسير وشائع، وقاموس الزوج على محدوديته، أصابه التَّقَلُّص، فخلا من أية إشارة، إلى وعيه بحالها، وإذا انتوى التعبير، بدا كلامه غليظا لائما، على ماذا؟!

كأنما يتعمد تحميلها، مسئولية انهماكه وهَدَّةِ حَيلِه في العمل.

هل غشَّاه النسيانُ أوتناسَى، كم لانَ لسانُ أمه الصلب، لاستجداء موافقتها على الارتباط به؟

هل أخطأتْ بتسليم أمرها لأهلها، كي يُصْدِروا الرأيَ الفصلَ في أمرها، هل بات عليها، أن تدفع الثمن وحدها؟

لم يكن تسليمُها للأهل إلاَّجَرْيا، على نَمَطٍ من التربية نشأتْ عليه، ما فائدة الأهل إذن؟ هل من أحدٍ، يفوقهم خبرةً أوحرصا

عليها؟

قالوا:

لاعليكِ أنتِ، كلُّ شيءٍ رَهْنُ إشارتِك؟

وهل هناك أفضل من شاب مكافح، تربطنا بأبيه صداقة متينة، وأمه قريبة لنا، ولو من بعيد؟ ودقيقُنا مع زيتنا، واللحمُ لايَطْرُدُ ظُفْرَه، و...، وهاهي دنياها الأوربية، تنحصر بين جدران أربعة.

- يصيح زوجها بملء فيه:

كله من أجلك أنت وعيالك.

- عِيالِي! أيَّةُ عِيالٍ؟!

هي ابنة وحيدة طفلة لاتزال.

-...

ويطفو على السطح السؤال:

لماذا لاتُجَرِّب البقاء بمصر، تاركة له السفر؟

وسرعان ما يأتيي الجواب؛ بأن التجربة لم تَفُتْها، لكنها أحيتْ داخلَ زوجها، نزعةَ الرجلِ القروي الخَشِن، فاشترط عليها ارتباط بقائها، بالتزام دار أبيه، فباتت تلقائيا خادمة لأهل للدار.

ناهيك عن لسان أمه الحاد، بما جَدَّ عليه، من تقليد لسان العزوني، في التفاصح وادعاء المعرفة، ينظر إليها مادِحا:

ست سَدَّادة، أمسَكَتْ معي، بالأُذُن الثانية لِلقُفَّةِ، حتى ربينا العيال أفضل تربية، وعلمناهم أحسن تعليم، ومنهم زوجك المهندس.

وكما جرَّبَتْ البقاء بدار أبيه، جربت البقاء بدار أبيها، ففاجأها الخبر، بقدوم زوجها في أجازة، ثم سفره ثانية، دون سؤاله عنها أوعن ابنتهما.

لتمضي فترات وتتم مشاورات، وتنجح مساعي التوفيق، في معاودة السفر معه، والحال لم تكن لتتغير، وليس والله من سبيل،

إلاجلسات (الإنترنت)، التي حلَّ الخالُ ضيفا على إحداها، أثناء زيارته الأخيرة، تجتهد كلماته في التخفيف عنها، قبل تركها لأختيها، ليهاتف العزوني كي يحضر.

...

إنها الجمعة الأولى، بالثلث الأخير من يناير2011، على صفحة التلفاز بالردهة، كان أحد البرامج بصدد مناقشة، ما يسمى بظاهرة البوعزيزية، نسبة إلى ''محمد البوعزيزي''، مُشْعِل النار في نفسه، فرد عليه التونسيون، بإشعال ثورة الجمعة 17 ديسمبر2010، شارك ضيوف البرنامج، في التعجب من سرعة تقليد البعض له، حيث قام أربعةُ مصريين، يوم الثلاثاء 18يناير2011، بإشعال النار في أنفسهم، بأماكن مختلفة، دون اتفاق مسبق.

- قال السفير:

مات الكثيرون في تونس، وتصميم البنتين كبير، على المشاركة في التظاهرات.

- قالت أمهما:

سلِّم الأمر لصاحب الأمر، هما ليستا طفلتين.

- سأل مايكل:

لماذا لاتسافر معهما؟

- سيطر الصمت قليلا على السفير، قال:

بشرط أن تأتي معنا.

- أجابه مايكل بحزم:

أتظنني كنتُ أتركهما تسافران بدوني؟!

- بان الاستبشار على وجه الأم، وانفرجت أسارير الأب، مطلقا تنهيدة ارتياح، قال:

حمدا لله، فلنسافر معا...، خلُّونا بَقَى في أختهما، وحكايتها مع ابن العزوني.

- قال مايكل:

العزوني على وصول، أكيد سمعت مهاتفتي له، بعد حواري مع البنت على (النت).

- سمعت المهاتفة صحيح، دون معرفةٍ بطرفها الآخر.

...

مع حضور العزوني، استمعَ إلى تأكيدات مايكل والسفير، على سفرهما مع البنتين، دون أن يُعَلِّق بكلمة، لكنه وجدها فرصة لِيُذَكِّرَ الحاضرين، بسيرته وسيرة خِلْفَته، من البنت الفقيدة والابن الشهيد، وشقيقهما الباقي بليبيا حتى اليوم، انتهاء بزوج ابنتهم المهندس ساكن أوربا، الذي سرعان ما دار الحوار، حول وضْعِه مع امرأته.

دار الحوار سائرا حائرا، بدا الرجل أثناءه، على غير عادته، فلم يُبْدِ ضيقا أوتَبَرُّمَا، من لهجة الكلام الشديدة، وربما الجارحة، كما سيطرتْ الحيرةُ على الوجوه، لبقاء سِحْنته رائقة، ولإمْسَاكِه عن التفاصُح عند الرد.

امتدت يدُه لتنال، شطرةَ كيكٍ بالسُّكَّر، من إعداد أم البنات، مع كوب من عصير الجوافة، سائلا دون أن يطرف له جفن:

ألاَّ بالحق ياعمنا السفير، شُفت المِجَسَّات، ولاَّ لأ؟

- أيَّة مِجَسَّات ياعزوني؟

- المِجَسَّات والمعدات موجودة، من يومين وهي تجرِّب وتختبر الأرض.

- مالنا نحن بمثل هذا الأن، أنا...

- مطلوب من المهندسين عمل تقرير، يحدد إن كانت الأرضُ، في حاجة إلى خوازيق، أم إلى قواعد تحت لِبْشَة خرسانية.

- مالك يا عزوني، اتهبلت ولاَّاتهبلت؟

- رفع العزوني نَبْرةَ صوته قليلا:

ولا اتهبلت ولاحاجة، أصلهم أخيرا قرروا، بناء المدرسة الإعدادية الثانوية، بعد نجاحنا أنا ومايكل، في إقناع سعد حسني بالتنازل، عن قضية توسيع الشارع، بين بيته الجديد وبين المدرسة.

...

كانت التروس برأس السفير، لاتزال تدور بموضوع البنت، وزوجها الـ...

أكمل العزوني مُقاطعا، وكأنه يقرأ أفكاره:

ولو أنتَ مندهشٌ يعني، من الحال المائلة لابني المهندس، فهذا أكيد غصبا عنه، وبُكْرَة تعتدل حاله، والجزمة على دماغه، ودماغ المتشددين له.

-...

- وعلى فكرة ياجناب السفير، وافقتم أو رفضتم، أنا رفيقكم في السفر، ولاتنس أنني والد شهيد.

ولأول مرة لاتطفر عيناه بالدمع، عقب ذِكْر ابنه هذا، فأطلق ضحكةً عاليةً صافيةً، وهو يُضيف:

وعلى فكرة أيضا، ابنتكم أمرأة المهندس، حامل في مهندس صغير.

وقبل أن تتزن التروسُ برأس السفير، اشتد الاهتزاز بكاهل العزوني، وكأن عفريتا ركبه، وهو يقول:

وأنت عارف أكيد، إن البنت يلزمها ولد!

- رد السفير وكأنه لم يستوعب آخر الكلام:

وجود المجسات ياعزوني، مجرد اختبار للأرض، أما البناء فحِبَالُه طويلة،...
أضاف وكأن الاستيعاب عاد إليه:
وعموما، الله يبشرك بالخير، أخيرا سيأتي حفيدُنا الذَّكَر.
ثم أطلق لضحكته العنان، فيما تمتمتْ امرأتُه بكلمات الحمد والشكر.
كانت البنتان لازالتا غارقتين، في بحر (النت) حتى أذانهما، ورغم الاستبشار الماثل على وجه أمهما، لسماعها خبر الحفيد، بدت عيناها موشِكَتَين على النُّعاس. فيما هَمَّ مايكل بالوقوف مُنْتَفِضَاً، سَاحِبَاً يدَ العزوني المُتَأَهِّب، وهو يقول:
تُصبحون على خير.
خَلُّونَا نلْحَق نَجَهّز للسَّفَر.

***

(تمت)
السوالم/دمياط/2017م

المؤلف في سطور

*** فكري داود**
*** قاص وروائي.**
*** ليسانس الآداب والتربية/قسم اللغة العربية وآدابها/جامعة طنطا1982.**

صدر له:

****الروايات:**
1- وقائع جبلية /رواية/الهيئة العامة لقصور الثقافة 2007.
2- طيف صغير مراوغ/ رواية/الهيئة المصرية العامة للكتاب2009.
3- المتعاقدون/ رواية/دار أخبار اليوم/ سلسلة كتاب اليوم2009.
4- عام جبلي جديد/ رواية/ مطبعة الإسراء/المنصورة 2006.
****المجموعات القصصية:**
1 - الحاجز البشري/ قصص/الهيئة العامة لقصور الثقافة 1996.
2- صغير في شبك الغنم/ قصص/الهيئة العامة لقصور الثقافة2001.
3- العزومة / قصص/ الهيئة العامة لقصور الثقافة 2013.
4 - دَهْسُ الطِّين/ قصص/كتاب الاتحاد/ اتحاد كتاب مصر/2016.
5- الاختيار الصحيح/ قصص للأطفال/الهيئة العامة لقصور الثقافة 2011.
6 - سمر والشمس/ قصص للأطفال/دار الإسلام للطباعة والنشر2004.
****النقد والتوثيق:**

1- كاتب الحارة الشعبية ومؤرخ الفقراء/ مطبوعات إقليم شرق الدلتا/2016.

****المشاركات:**

*** عضو اتحاد كتاب مصر.**

***عضو نادي القصة.**

***عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب.**

***عضو الأمانة العامة لمؤتمر أدباء مصر العام لدورتيه23و24.**

وإختير أخيرا لدورتي29و30.

*** رئيس تحرير مجلة (رواد الجديدة) ثقافة دمياط/هيئة قصور الثقافة.**

*** مدير تحرير كتاب (رواد) الأدبي/الصادر عن ثقافة دمياط/هيئة قصور الثقافة.**

***أمين عام مؤتمر دمياط الأدبي لليوم الواحد /إبريل2009**

***أمين عام مؤتمر إقليم شرق الدلتا الثقافي /إبريل2018**

*** رئيس نادي الأدب، ورئيس نادي الأدب المركزي بدمياط.**

***عضو جمعية رواد الأدبية.**

*** محاضر مركزي بالهيئة العامة لقصور الثقافة.**

*** تُرجمت بعض قصصه إلى الفرنسية والإنجليزية.**

***شارك عضوا، أوباحثا في مؤتمرات أدباء مصر العام، ومؤتمرات القصة، و شرق الدلتا، ودمياط، وغيرها.**

*** شارك في العديد من البرامج الثقافية بالإذاعة، وبالتلفزيون المصري.**

***نوقِشَتْ أعماله في العديد من البرامج الإذاعية، والتلفزيونية، والمؤتمرات، والندوات.**

***الجوائز:**

ـ جائزة اتحاد كتاب مصر/في القصة القصيرة بمجوعته (دَهْسُ الطِّين) /2016.
ـ الجائزة الأدبية لجريدة الجمهورية/ فرع المسرحية/عن مسرحية لعبة الحياة والموت2009
ـ جائزة مؤسسة أخبار اليوم/ مسابقة كتاب اليوم الأدبي / الرواية/ 2006.
ـ جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة / القصة القصيرة/1995.
ـ جائزة الشباب والرياضة / القصة القصيرة/1988 .
ـ جائزة جريدة أنباء دمياط/القصة القصيرة/1993.
ـ جائزة جريدة الدمايطة/القصة القصيرة/1993.
ـ جائزة موقع ''منتدى الحور العربي الالكتروني''/ القصة القصيرة/2005.
ـ موقع''منتدى أسمار الالكتروني''/ النقد/2006.
ـ جائزة برنامج (عصير الكتب)، عن قراءة في رواية (التفاحة والجمجمة) لمحمد عفيفي 2011

*** التكريم:**

ـ تكريم وزارة الثقافة، والهيئة العامة لقصور الثقافة، ضمن رموز الإبداع في مصر، وإقليم شرق الدلتا الثقافي2017. درع الهيئة +شهادة تقدير.
ـ اتحاد كتاب مصر/لفوزه بإحدى جوائزة الخاصة/ عن المجموعة القصصية (دهس الطين)2017.
ـ ـ تكريم قناة مصر الحياة2017/كشخصية أدبية كبيرة بالمحافظة ، شهادة تقدير.
ـ تكريم قناة أسرار الأسبوع2016/كأحد رموز الحركة الإبداعية شهادة تقدير+ميدالية القناة.

- تكريم مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر/ لفوزه في مسابقة جريدة الجمهورية/ عن مسرحية لعبة الحياة والموت2009- شهادة تقدير - جائزة مالية.
- تكريم الهيئة العامة لقصور الثقافة/في مؤتمر إقليم شرق الدلتا الثقافي السادس2007/درع الهيئة+ شهادة تقدير.
- تكريم مؤسسة أخبار اليوم/ لفوزه في مسابقة كتاب اليوم الأدبي/ فرع الرواية 2006/درع مؤسسة أخبار اليوم + شهادة تقدير+ ميدالية أخبار اليوم+ جائزة مالية.
- تكريم كلية العلوم جامعة المنصورة عامي2005 و2006م، كأحد رواد الحركة الأدبية بالإقليم - شهادتا تقدير.
- تكريم مديرية الشباب والرياضة بدمياط، ضمن رموز الحركة الثقافية بالمحافظة 2004م/شهادة تقدير.
- تكريم كلية التربية بدمياط/جامعة المنصورة، لمساهماته في إثراء الحركة الثقافية، والربط بين الجامعة والأدباء 2007/ شهادتا تقدير
***<u>ناقشَ أعمالَه العَدِيدُ من النقاد والمبدعين ، نذكر منهم - دون أي قَصْد للترتيب - الأساتذة:</u>**

علاء الديب/ محمد محمود عبد الرازق/ د. محمد زيدان/د. أيمن تعيلب/ بهاء جاهين/ فؤاد حجاج/ سيد الوكيل /د. شريف الجيار/ د. أحمد الحسيني/ د. نادر عبد الخالق/ د.فتحي عبد الفتاح/ سمير درويش/ فؤاد حجازي/ إبراهيم حمزة / سمير عبد الفتاح/ د. حسين علي محمد/ د.محمد إبراهيم طه / د. إبراهيم عبد العزيز/ أحمد عبد الرازق أبوالعلا/ ربيع الصبروت/ فريد معوض/ د. محمد عبد الحليم غنيم/سمير الفيل/ صلاح والي/ محمد عبد الله الهادي/ خيري عبد الجواد/ مصطفى الأسمر/ د. محمد طلبة

الغريب/ جمال سعد/ مجدي جعفر/ إبراهيم جاد الله/عصام الزهيري/ د. عيد صالح/ أحمد رشاد حسانين/ ناصر العزبي/ فرج مجاهد عبد الوهاب/محمد عطية محمود/... وآخرون..

****له مساهمات بحثية منها:**

- **قصص الطفل تأملات وقراءات /ضمن فعاليات مؤتمر إقليم شرق الدلتا الثالث / المنصورة2004**
- **القصة على الإنترنت(القصة الدمياطية نموذجا)/مؤتمر اليوم الواحد/دمياط2006**
- **قراءات متباينة في قصص دمياطية/مؤتمر لإقليم شرق الدلتا الثقافي السادس/دمياط 2007**
- **(مرثية لثنائية الحزن والأمل) قراءة في قصة (صورته) للقاص الفلسطيني :زكي العيلة. ضمن الأعمال الفائزة بجائزة النقد العربي/موقع ملتقى أسمار الالكتروني.**
- **(ذلك التهامي) قراءة في قصيدة(التهامي) للشاعر السعودي إبراهيم زولي/ضمن الأعمال الفائزة بنفس الجائزة**
- **قراءة في قصة(ليلة هند الأخيرة) للدكتور حسين علي محمد/ضمن الأعمال الفائزة بنفس الجائزة.**
- **النشر على الإنترنت والمكتبة الإلكترونية/مؤتمر اليوم الواحد/دمياط 2007.**
- **إطلالة على المشهد السردي الدمياطي/مؤتمر اليوم الواحد بدمياط إبريل 2009.**
- **عندما عادت قيمة الفرد اندلعت الثورة(مجرد تعليق على بعض الظواهر) عن ثورة 25يناير 2011/مؤتمرديرب نجم بالشرقية لليوم الواحد/ مايو2011**

- المهمشون دود الأرض/قراءة في قصص مصرية/مؤتمر إقليم شرق الدلتا الثقافي.
- مرثيات سردية للبطل المأزوم/قراءة في قصص من شرق الدلتا/مؤتمر إقليم شرق الدلتا الثقافي 2017.
**** نشرت سيرته وقصصه وبعض الدارسات والقراءات لها على كثير من المواقع الأدبية المتخصصة على شبكة (الإنترنت) منها:**
أزاهير/ القصة العربية/أصوات معاصرة/شبكة الذاكرة الثقافية/ منتدى أسمار/درب الياسمين/ مدينة على هدب طفل/فضاءات/ قامات/القصة السورية/من المحيط إلى الخليج/ملتقى الحوار العربي/ أبناء مصر/مدد/جهات/أوتار/أدباء/مجلة أفق/ مجلة أقلام/ مجلة الحرمل السورية/مجلة عودة الند....وغيرها

العنوان البريدي:
جمهورية مصر العربية - السوالم - كفر سعد - دمياط.
محمول: 01004563414
البريد الإلكتروني: fikryd@hotmail.com